الإعجاز في البلاغة والبيان

المطلب الأول

نشأة دراسة الإعجاز البلاغي

لقد حازت بلاغة القرآن الكريم وفصاحته جماع الحسن كله، ألفاظ فصيحة، ومعان صحيحة، وعبرات مليحة، وضع كل شيء منها موضعه الذي لا يمكن أن يكون غيره أولى منه وأحسن، سواء في ألفاظه التي لا تنبو عنها الأسماع، أو في معانيه التي لا تتفاوت ولا تتباين، على ما تتصرف إليه من الوجوه، أو في عباراته التي بلغت الطبقة الأعلى في الرونق والطلاوة، وفي مطابقتها بأرفع مستوى لمقتضى الحال، وهذا ما تحسه وأنت تتأمل تشبيهاته وكناياته، وتتملى استعاراته ومجازاته، أو تتدبر تمثيلاته ومختلف ألوان بيانه وصور بلاغته.

وهذا غريب على ما تعارفه العرب وقدروا عليه، إذ ليس لهم كلام مشتمل كله على هذه الروعة البلاغية، والتماثل التام في الفصاحة، والتناغم في تصريف الكلام البديع، والمعاني اللطيفة، فأسكت العرب عن منازعته السبق، وشهدوا بعجزهم عن مضارعته، لا يستطيع الإتيان بمثله، ولو تظاهروا عليه، فكان ببلاغته وفصاحته معجزا، وشاهدا على أن هذا القرآن ليس من عند البشر، وإنما هو من عند الله عز وجل.

وقد أولى العلماء منذ القدم دراسة بلاغة القرآن الكريم اهتماما بالغا، وصرفوا له عنايتهم الكبيرة، وكلهم مجمعون على أن القرآن معجز ببلاغته، وذهب بعضهم إلى أن بلاغة القرآن هي الوجه المعجز الأساس الذي تحدى الله سبحانه به البشر،

وسنشير بدراستنا هذه إلى أهم الدراسات –القديمة والحديثة– التي أولت بلاغة القرآن عنايتها، ثم نعقب بدراسة بعض الفنون التي تميز بها الأسلوب القرآني فأعجز.

دراسة الجاحظ:

إذا كان كتاب (نظم القرآن) للجاحظ (ت٢٥٥هـ) الذي سقط من يد الزمن شيئا جديدا في تاريخ الدراسات القرآنية التي سبقته، ويتلاءم وما منحه من مقدرة فائقة في البيان، وعد أول دراسة في (النظم القرآني) فإن الجاحظ يعد مؤسس البلاغة العربية حين أفرد لها لأول مرة كتابه (البيان والتبيين)، ونثر فيه كثيرا من ملاحظاته، وملاحظات معاصريه، وتعمق وراء عصره[١]، وهكذا ما بثه في كتابه (الحيوان) وبما ينبئ بأنه كان ينظر في عمق إلى ما يشيع في جو النص القرآني من تأملات بعيدة المدى، وإيحاءات عظيمة الخطر، وإليك أهم ما تميزت به دراسته للأسلوب القرآني:

١–إن الجاحظ كان ينظر للأسلوب القرآني نظرة عقلية مجردة تتأثر بذوقه الخاص وإحساسه الخاص فهي نظرة ذهنية فنية في أساسها.

٢–لم تُكَوِّنْ تلك النظرة للأسلوب القرآني قاعدة عامة تندرج تحتها تلك اللمحات الفنية، وتنبض في نطاقها كدليل على صحتها ، بمعنى أنها كانت تفتقد الوحدة العضوية بين أجزائها المتعددة، فهي شذرات منتثرة من غير ترابط واتساق.

٣–نظر للأسلوب القرآني نظرة جدية باعتبار النظم والتركيب فتحت الباب لدراسات على جانب كبير من الأهمية في أسلوب القرآن، فهي وإن كانت نظرات جزئية في آية دون أخرى إلا أنها ذات خطر وأهمية.

٤–لم تكن الدلالات البلاغية في دراساته القرآنية مقصودة لذاتها لتكون نظرية عامة، وإنما كانت انسياباً تأثرياً يفيض في بعض المواقف دون بعض[٢].

١– البلاغة تطور وتاريخ: د. شوقي ضيف: ٥٨.

٢–بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ: ٤٩.

وكان الجاحظ أول من نبه بوضوح إلى ضرورة استعمال الألفاظ استعمالاً دقيقاً كما يستعملها القرآن، فلمح الفرق في استعمال القرآن لكلمتي (المطر والغيث)، فالأولى يستعملها في العذاب والثانية في مقام الرحمة والإنعام، كما لمح الفرق بين كلمتي (الجوع والسغب).

وكان يكشف عن الدلالات الدقيقة للآيات، مشيراً في أثناء ذلك إلى ما فيها من استعارات وتمثيلات وتشبيهات ومجازات، يقول في قوله تعالى:﴿ أذلك خيرٌ نُزُلا أم شجرةُ الزَّقّوم، إنا جعلناها فتنةً للظالمين، إنها شجرةٌ تخرج في أصل الجحيم، طَلْعُها كأنه رؤوسُ الشياطين﴾ الصافات: ٦٢-٦٥، إن الناس لم يروا صورة للشيطان قط، ولكن الله قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشيطان أو الشياطين، واستسماجه وكراهته، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك، ولذا رجع بالايحاش والتنفير وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين، وعند جميع الأمم على اختلافهم، فهي صورة تخيلية تتحرك من خلال أجزاء التركيب التي تتسق لإبرازها الكلمات، ما بين واضح مثل أصل الجحيم وهي قعر جهنم، ومبهم مثل رؤوس الشياطين، وكل من هذا وذاك يوحي بالخوف والرعب،[1] وذكر أن هذا جار على وفق أساليب العرب كقولهم:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة حمر كأنياب أغوال

ولا أحد رأى الغول ولا أنيابه.

ابن قتيبة:

جاء بعده تلميذه ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) فوضع كتابه (تأويل مشكل القرآن) ويظهر فيه ابن قتيبة متأثراً بأستاذه الجاحظ في وقفاته البيانية التي تجلي سر الإعجاز في بلاغة القرآن، فقد كان يبين معنى الآيات ويكشف عن دلالاتها من خلال المجاز

١-الحيوان: ٤ / ٣٩ ، و ٦ / ٢١١.

والاستعارة وعقد أبواباً للكلام على المقلوب، والحذف والاختصار والتكرار والزيادة والكناية والتعريض وتأويل الحروف ومخالفة ظاهر اللفظ معناه[١].

ويتبين من خلال دراسته ما يأتي:

١-تأكيده أمر الإعجاز بالتركيب البلاغي، وضم الألفاظ بعضها إلى بعض، لكن لم يشر إلى ما وراء هذا النظم.

٢-الإيقاع الداخلي للآيات، أوالنظم الموسيقي في القرآن، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق والتفشي والتكرير[٢].

٣-الأثر النفسي الذي يتركه تأليف الآيات في القارئ والسامع.

لكن ابن قتيبة كالجاحظ وقف عند الأمثلة الجزئية دون الربط بينها، فهو إذ يتحدث عن الاستعارة -مثلاً- فإن شغله الشاغل هو الكشف عن الاستعارة، وتأكيد مفهومها الذي حدده الأسلوب، ومن هذا فهو يجمع الآيات التي تتشابه فيها الاستعارات ليؤكد هذه بتلك، ولم يشتغل بما ينبض به التعبير من دلالات خفية. ومع ذلك فإنه يشكل مع الجاحظ حلقة متقدمة مهمة في مجال الدراسات البيانية حول إعجاز القرآن.

فكانا يهتمان للقول واللفظ باعتبار فنونه الأدبية كما يقتضيه باب المجاز -مثلاً- أو باب الاستعارة وغيرها، ويتحدثان عن بيان القرآن تحت هذه الأبواب.

الرماني (ت٣٨٦هـ) ورسالته: (النكت في إعجاز القرآن)[٣]

ودراسته فيها دراسة فنية عميقة تتعلق بإعجاز الأسلوب القرآني وبالبلاغة كفن من فنون القول، وهو إذ يتعرض للآية فإنه يعرض المعنى الحقيقي ليبين الدلالة البلاغية ثم

١- ينظر تأويل مشكل القرآن.

٢- إعجاز القرآن: الرافعي: ٢٤٤.

٣- نشرت هذه الرسالة ضمن كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).

يشرحه شرحاً فنياً يبين فيه اللمحة الفنية والنفسية، ثم يكشف عن المعنى الثاني الذي وراء ذلك، فكانت دراسته تتوخى الجانب النفسي والتأثير الوجداني، فوقف يبين الأسلوب عن طريق هذه الأنماط.

والرماني يرى أن وجوه الإعجاز تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة ،والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقياسه بكل معجز، ثم يوجه اهتمامه نحو البلاغة في القرآن التي يرى أنها أظهر الوجوه في إعجاز القرآن، فيفصل القول فيها، فيذكر أن البلاغة على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلى طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن فقط، ثم يسترسل في تفصيل أبواب البلاغة التي حصرها في عشرة أبواب: الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان مستشهداً لكل ناحية بالآية تلو الآية من القرآن[1].

لقد جمعت رسالته كثيرا من ألوان الجمال في التعبير القرآني، وكشفت عن روعة الأداء والتناسق فيما بين اللفظ والمعنى، وتعمقت في مخاطبة القرآن للغرائز والشعور، وتصويره لخلجات النفس الإنسانية، وما وراء تلك الصور البلاغية في القرآن من إثارة للحس، ورسم للعواطف ، وتشخيص للمعنى الذهني، فكانت دراسته الفنية عميقة تتعلق بإعجاز الأسلوب القرآني، وبالبلاغة كفن من فنون القول[2].

أمثلة من دراسته البلاغية:

قال تعالى: ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ القمر:١٩-٢٠. قال الرماني: « هذا بيان قد أخرج ما لم تجر به

١- النكت في إعجاز القرآن: الرماني: ٦٩ وما بعدها.

٢- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ: ٨٤.

العادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمعا في قلع الريح لهما، وإهلاكه إياهما، وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة»[١].

وقال تعالى: ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ النحل: ١٢، «وهذا مستعار، وحقيقته أجاعها الله وأخافها، والاستعارة أبلغ، لدلالتها على استمرار ذلك بهم كاستمرار لباس الجلد وما أشبهه، وإنما قيل: ذاقوه، لأنه كما يجد الذائق مرارة الشيء، فهم في الاستمرار كتلك الشدة في المذاقة» [٢].

وقال تعالى:﴿فاصدع بما تؤمر﴾ الحجر:٩٤، قال الرماني:« حقيقته فبلغ ما تؤمر به، والاستعارة أبلغ من الحقيقة ، لأن الصدع بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة، والتبليغ قد يصعب حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع. والمعنى الذي يجمعها الإيصال، إلا أن الإيصال الذي له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ»[٣].

وقوله:﴿بريح صرصر عاتية﴾ الحاقة:٦، والعتو أبلغ من (شديدة) لأن العتو شدة فيها تمرد.[٤]

وقوله: ﴿ سمعوا لها شهيقاً وهي تفور. تكاد تميز من الغيظ ﴾ الملك:٧-٨ . «شهيقاً حقيقته صوتاً فظيعاً كشهيق الباكي، والاستعارة أبلغ منه وأوجز والمعنى الجامع بينهما؛ قبح الصوت، ﴿تميز من الغيظ ﴾ حقيقته: من شدة الغليان بالاتقاد، والاستعارة أبلغ منه، لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس، مدرك ما يدعو إليه من شدة الانتقام ».

فقد اجتمع شدة في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل، وفي ذلك أعظم الزجر وأكبر الوعظ، وأول دليل على سعة القدرة وموقع الحكمة. ومنه:﴿إذا رأتهم من

١- النكت: ٧٧.
٢- النكت: ٨٣.
٣- النكت: ٨٠
٤- النكت: ٨٠.

مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ الفرقان:١٢، أي تستقبلهم للإيقاع بهم استقبال مغتاظ يزفر غيظاً عليهم[١].

وفي التشبيه قال عز وجل: ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾الحاقة:٧، وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهية إلى ما يعلم، وقد اجتمعا في خلو الأجساد من الأرواح وفي ذلك الاحتقار لكل شيء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل[٢]. ونحو هذا كثير يرجع إليه في رسالته.

الخطابي (ت٣٨٨هـ) ورسالته (بيان إعجاز القرآن)[٣]

لقد اهتم الخطابي بدراسة الأسلوب اهتماما بالغا، وبحث في خصائصه، وفي أنواعه وطبقاته، فقسمه إلى أنواع متعددة تفرد بها عن سابقيه ومعاصريه، وعدّ بذلك أول من قسم الأسلوب إلى أنواع متعددة وبمثل هذا التقسيم الدقيق، فتراه في الصفحات الأولى من كتابه بعد أن يتناول الأسلوب، يقسمه إلى ثلاثة أقسام:

فمنه البليغ الرصين الجزل، ومنه الفصيح القريب السهل، ومنه الجائز الطلق الرسل، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة، فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقسطه، والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع منها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين، لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعا من الوعورة،فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل منهما عن الآخر فضيلة

١- النكت: ٨٠ – ٨١.
٢- النكت: ٧٨.
٣- منشورة ضمن كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).

خص بها القرآن، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره، ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه.[1]

فهذا التقسيم للأسلوب، وإن كان تقسيما شكليا، فلم يسبق إليه الخطابي، وهو مقدمة لفكرته عن النظم في القرآن الذي صار معجزا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ،في أحسن نظوم التأليف، متضمنا أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، وبيان بمنهاج عبادته؛ من تحليل وتحريم، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها، واضعا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في أمر أليق منه، جامعا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه.

وهكذا يمضي الخطابي في بيان الوجه الذي يتقدم به الكلام على غيره، فليست الأهمية للفظ وحده، ولا للمعنى وحده، وإنما يتقدم الكلام بأشياء ثلاثة:

١- لفظ حامل. ٢- معنى به قائم. ٣- رباط لهما ناظم.

فإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح، ولا أجزل، ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا، وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه، وهكذا المعاني.

فالرباط الناظم عنده هو حسن التأليف في الكلام، بأن تكون الكلمة في موقع من أختها، متضامنة معها، ومتآخية، حتى يتكامل إبراز المعنى، ويتم للنسق البيان، فلا تنافر ولا تعقيد[2].

١- بيان إعجاز القرآن: ٢٢ – ٢٣.

٢- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ: ١٦٦.

وهذا ما يوضحه الخطابي بقوله: ثم أعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة.

ذلك أن في الكلام ألفاظ متقاربة في المعاني، وبحسب أكثر الناس إنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكقولك: اقعد واجلس، وبلى ونعم، وذلك وذاك، ونحوها، فكل لفظة منها لها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها، فالكلمة قد تصلح في تركيب، ثم لا تصلح في تركيب آخر يؤدي نفس المعنى، لما بها من خصائص وسمات.

وهو يكثر من الأمثلة التي توضح الفروق بين الكلمات وشبيهاتها في الاستعمال، ثم ينتهي بعد ذكره لأوصاف بلاغة القرآن إلى أن هذه الأمور كلها لا تجتمع لأحد من البشر، ولا يجوز أن تأتي عليها قدرته، وإن كان أفصح الناس وأعرفهم بطرق الكلام وأساليب فنون البيان، لأنه لا يتأتى لأحد من البشر أن يكون جامعا لكل مفردات اللغة وخصائصها وسماتها، ومعرفة الأخص منها والأشكل في هذا الموضع دون غيرها، وما يلائم المعنى منها، بحيث لا يصلح غيرها له، من حيث الفصاحة والبلاغة والتأثير ودقة المعنى حتى تنتظم وتتسق[1].

وقد أثار الخطابي في دراسته هذه بعض الاعتراضات التي أوردها الطاعنون، كضعف التأليف، أو التكرار، وتولى الإجابة عنها، مما يجعلها دراسة تطبيقية مذهبية لما ذهب إليه، شغلت ثلث رسالته تقريبا. من ذلك ما قاله في قوله تعالى:﴿فأكله الذئب﴾ يوسف:١٧، فإن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب، وأصل الفرس دق العنق وإن لم يأت على أكله، وجائز أن يدق عنقه فيموت ولا يأكل منه

١- بيان إعجاز القرآن: ٢٥.

أو يأكل بعضه، لكنه لا يفيد أكله بما لا يبقي منه شيئاً، أما الأكل فإنه يفيد الإتيان عليه بالكلية فلا يبقي منه شيئاً، لذلك لم يقولوا: (افترسه الذئب) وإنما قالوا:﴿أكله الذئب﴾ ، قاصدين أنه أكله أكلا، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلا ولا عظما، وذلك لأنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه لصحة ما ذكروه، فادعوا فيه الأكل، ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفَرْسُ لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح أن يعبر عنه إلا بالأكل. على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال من الذئب وغيره من السباع[1].

وهكذا قوله تعالى: ﴿هلك عني سلطانيه﴾ الحاقة:٢٩، وذلك أن الذهاب قد يكون على مراصدة العودة، وليس مع الهلاك بقياً ولا رجعى[2].

ومثله قوله: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ الحجر:٩٤، لما في الصدع من المبالغة فيما أمر به حتى يؤثر في النفوس والقلوب تأثير الصدع في الزجاجة ونحوه، فهو أبلغ من القول(اعمل بما تؤمر) وإن كان هو الحقيقة، والصدع مستعار.

ومن ذلك يمكننا أن نخلص إلى القول بأن الخطابي تناول الصورة البيانية في القرآن معللاً أسباب جمالها، كاشفاً عن ما وراءها من حيث الكلمات التي تدل عليها، وهو يعلل تفضيل لفظ على لفظ في استرسال يدل على تمكنه من دلالات اللغة، وخصائص الألفاظ.

كما تعرض للعبارة كوحدة من حيث اللفظ والمعنى والنظم، وتناول أنواع الأساليب ووجه التقديم فيها، ومراتب البلاغة والمتميز منها، غير غافل ما وراء الدلالات الظاهرة من معان ثانية، وما توحي به من معان نفسية ترشح من النظم.

الباقلاني وكتابه (إعجاز القرآن):

١- المصدر السابق: ٣٧و٤٠.

٢- المصدر السابق: ٤٠.

ومجمل نظريته في إعجاز القرآن البلاغي: أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه.

وهو متأثر بالشطر الأول في نظريته بالجاحظ وفي الشطر الثاني بفكرة الرماني التي ذهب فيها إلى أن القرآن يرتفع إلى أعلى طبقة من طبقات البلاغة[1]. وقد أجمل فكرته في إعجاز القرآن من هذا الوجه بعشرة وجوه، فيقول: [2]

«والوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه. والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل، ونكشف الجملة التي أطلقوها. فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه:

١- ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.

وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالا، فتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلا في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل فيه، ولا يتصنع له.[3]

١- البلاغة تطور وتاريخ:١٠٨وفكرة النظم بين وجوه الإعجاز: ٣٢.

٢ - إعجاز القرآن الكريم: الباقلاني: ٣٥-٤٧.بتصرف قليل.

٣ - يختلف العلماء في إمكانية إطلاق السجع على القرآن، والراجح عدمه، لأن السجع يكون المعنى فيه يتبع اللفظ، وفي القرآن الكريم اللفظ يتبع المعنى.

وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب مسجع، ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس من قبيل الشعر، لأن من الناس من زعم أنه كلام السجع، ومنهم من يدعى فيه شعرا كثيرا،.. فهذا إذا تأمله المتأمل، تبين بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم، أنه خارج عن العادة، وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميز حاصل في جميعه.

٢- أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثير، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة، يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويشملها ما نبديه من التعمل والتكلف، والتجوز والتعسف، وقد حصل القران على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به، فقال عز من قائل:﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ الزمر:٢٣، وقوله:﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ النساء:٨٢، فأخبر سبحانه أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت، وبان عليه الاختلال، وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي بدأنا بذكره، فتأمله تعرف الفصل.

٣- أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها، من ذكر قصص ومواعظ، واحتجاج وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم، أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها.

ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في

الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ، ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل، أو سير الليل، أو وصف الحرب، أو وصف الروض، أو وصف الخمر، أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر، ويتناوله الكلام، ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وبزهير إذا رغب.

ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل، وسائر أجناس الكلام، ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ، رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه، ووقف دونه، وبان الاختلاف على شعره، ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم، لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر، ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم، فإذا كان الاختلال يتأتي في شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه، استغنينا عن ذكر من هو دونهم، وكذلك يستغني به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها، ثم نجد من الشعراء من يجود في الرجز، ولا يمكنه نظم القصيد أصلا، ومنهم من ينظم القصيد، ولكن يقصر تقصيرا عجيبا، ويقع ذلك من رجزه موقعا بعيد، ومنهم من يبلغ في القصيدة الرتبة العالية ولا ينظم الرجز، أو يقصر فيه مهما تكلفه أو تعمله، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل، فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانا بينا، ومنهم من يوجد بضد ذلك.

وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا بينا، ويختلف اختلافا كبيرا، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة

الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار، وعند تباين الوجوه، واختلاف الأسباب التي يتضمن.

٤- أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بينا في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع.

ألا ترى أن كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره، والخروج من باب إلى سواه، حتى إن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن وصفه، في الخروج من النسيب إلى المديح، وأطبقوا على أنه لا يحسنه، ولا يأتي فيه بشيء، وإنما اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضى، وتنقل يستحسن. وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء، والتحول من باب إلى باب.

بينما القرآن على اختلاف فنونه، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة، يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف.

٥- أن نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن، كما يخرج عن عادة كلام الإنس، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا، وقد قال الله عز وجل: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ الإسراء:٨٨.

بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار، وعند تباين الوجوه، واختلاف الأسباب التي يتضمن.

فإن قيل هذه دعوى منكم، وذلك أنه لا سبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن عن الإتيان بمثله، وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله وإن كنا عاجزين، كما أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة، وأسباب غامضة دقيقة لا نقدر نحن عليه،ا ولا سبيل لنا للطفها إليها، وإذا كان كذلك لم يكن إلى علم ما ادعيتم سبيل، قيل: قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله عز وجل، وقد يمكن أن يقال: إن هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن، وما يروون لهم من الشعر، ويحكون عنهم من الكلام، وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم، منقول عنهم، والقدر الذي نقلوه من ذلك قد تأملناه، فهو في الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الإنس، ولعله يقصر عنها، ولا يمتنع أن يسمع كلامهم، ويقع بينهم وبينهم محاورات في عهد الأنبياء صلوات الله عليهم، وذلك الزمان مما لا يمتنع فيه وجود ما ينقض العادات، على أن القوم إلى الآن يعتقدون مخاطبة الغيلان، ولهم أشعار محفوظة مدونة في دواوينهم ..

وإذا كان القوم يعتقدون كلام الجن ومخاطباتهم، ويحكون عنهم، وذلك القدر المحكي لا يزيد أمره على فصاحة العرب، صح ما وصف عندهم من عجزهم عنه كعجز الإنس.

ويبين ذلك من القرآن أن الله تعالى حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن، فقال: ﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾ الأحقاف:٢٩، إلى آخر ما حكى عنهم فيما يتلوه، فإذا ثبت أنه وصف كلامهم، ووافق ما يعتقدونه من نقل خطابهم، صح أن

يوصف الشيء المألوف بأنه ينحط عن درجة القرآن في الفصاحة، وهذان الجوابان أسد عندي من جواب بعض المتكلمين عنه بأن عجز الإنس عن القرآن يثبت له حكم الإعجاز، فلا يعتبر غيره.

٦- أن الذي ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصاد، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجوز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم، موجودة في القرآن، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة، وقد ضمنا بيان ذلك من بعد، لأن الوجه ههنا ذكر المقدمات، دون البسط والتفصيل.

٧- أن المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع، وذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور، ثم إذا انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه، بان التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر، والفصاحة أتم.

٨- أن الكلام يتبين فضله، ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر فتأخذها الأسماع، وتتشوف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها باديا، غامرا سائر ما تقرن به، كالدرة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد.

وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غرة جميعه، وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه، وتخصصه برونقه وجماله، واعتراضه في حسنه ومائه.

وهذا الفصل أيضا مما يحتاج فيه إلى تفصيل وشرح ونص، ليتحقق ما ادعيناه منه، ولولا هذه الوجوه التي بيناها لم يتحير فيه أهل الفصاحة، ولكانوا يفزعون إلى التعمل للمقابلة، والتصنع للمعارضة، وكانوا ينظرون في أمرهم، ويراجعون أنفسهم، أو كان يراجع بعضهم بعضا في معارضته، ويتوقفون لها، فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة إنما عدلوا عن هذه الأمور؛ لعلمهم بعجزهم عنه، وقصور فصاحتهم دونه، ولا يمتنع أن يلتبس على من لم يكن بارعا فيهم، ولا متقدما في الفصاحة منهم، هذا الحال، حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل، وحتى يعرف حال عجز غيره، إلا أنا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا، ولم يشتغلوا بذلك، تحققا بظهور العجز، وتبينا له.

وأما قوله تعالى حكاية عنهم:﴿ وإذا تتلى عليهم آياتُنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إنْ هذا إلا أساطير الأولين ﴾ الأنفال:٣١، فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم، وقد يمكن أن يكون قاله منهم أهل الضعف في هذه الصناعة، دون المتقدمين فيها، وقد يمكن أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم وهو يدل على عجزهم، ولذلك أورده الله مورد تقريعهم، لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم، لكانوا يتجاوزون الوعد إلى الإنجاز، والضمان إلى الوفاء، فلما لم يفعلوا ذلك مع استمرار التحدي، وتطاول زمان الفسحة في إقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه، علم عجزهم، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط، ومعلوم من حالهم وحميتهم أن الواحد منهم يقول في الحشرات والهوام والحيات، وفي وصف الأزمة والأنساع والأمور التي لا يؤبه لها، ولا يحتاج إليها، ويتنافسون في ذلك أشد

التنافس، ويتبجحون به أشد التبجح، فكيف يجوز أن تمكنهم معارضته في هذه المعاني الفسيحة، والعبارات الفصيحة، مع تضمن المعارضة لتكذيبه، والذب عن أديانهم القديمة، وإخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم، وتضليله إياهم، والتخلص من منازعته، ثم من محاربته ومقارعته، ثم لا يفعلون شيئا من ذلك، وإنما يحيلون أنفسهم على التعاليل، ويعللونها بالأباطيل، هذا محال.

٩- أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفا، ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم.

والذي تنقسم إليه هذه الحروف على ما قسمه أهل العربية، وبنوا عليها وجوهها، أقسام نحن ذاكروها، فمن ذلك أنهم قسموها إلى حروف مهموسة وأخرى مجهورة، فالمهموسة منها عشرة، وهي: الحاء والهاء والخاء والكاف والشين والثاء والفاء والتاء والصاد والسين، وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة، وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء، لا زيادة ولا نقصان، والمجهور معناه أنه حرف اشبع الاعتماد في موضعه، ومنع أن يجري معه النفس حتى ينقضي الاعتماد، ويجري الصوت، والمهموس كل حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس، وذلك مما يحتاج إلى معرفته لتبنى عليه أصول العربية.

وكذلك مما يقسمون إليه الحروف، يقولون إنها على ضربين: أحدهما- حروف الحلق، وهي ستة أحرف: العين والحاء والهمزة والهاء والخاء والغين، والنصف الآخر

من هذه الحروف مذكور في جملة الحروف التي تشتمل عليها الحروف المثبتة في أوائل السور، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الحلق.

وكذلك تنقسم هذه الحروف إلى قسمين آخرين: أحدهما- حروف غير شديدة، وإلى الحروف الشديدة، وهي التي تمنع الصوت أن يجري فيه، وهي: الهمزة والقاف والكاف والجيم والظاء والذال والطاء والباء. وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضا هي مذكورة في جملة الحروف التي بنى عليها تلك السور، ومن ذلك الحروف المطبقة، وهي أربعة أحرف، وما سواها منفتحة، فالمطبقة الطاء والظاء والصاد والضاد، وقد علمنا أن نصف هذه الحروف في جملة تلك الحروف المبدوء بها في أوائل السور.

وإذا كان القوم الذين قسموا في الحروف هذه الأقسام لأغراض لهم في ترتيب العربية، وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي، رأوا مباني اللسان على هذه الجهة، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر على حد التنصيف الذي وصفنا، دل على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه بعد العهد الطويل، لا يجوز أن يقع إلا من الله عز وجل، لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب، وإن كان إنما تنبهوا على ما بنى عليه اللسان في أصله، ولم يكن لهم في التقسيم شيء، وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان، فذلك أيضا من البديع الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان، فإن كان أصل اللغة توقيفا فالأمر في ذلك أبين، وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضا، لأنه لا يصح أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا، إلا بأمر من عند الله تعالى، وكل ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الإعجاز من وجه.

وقد يكن أن تعاد فاتحة كل سورة لفائدة تخصها في النظم إذا كانت حروفا، كنحو (آلم)، لأن الألف المبدوء بها هي أقصاها مطلا، واللام متوسطة، والميم متطرفة، لأنها

تأخذ في الشفة، فنبه بذكرها على غيرها من الحروف، وبين أنه إنما أتاهم بكلام منظوم مما يتعارفون من الحروف التي تتردد بين هذين الطرفين، ويشبه أن يكون التصنيف وقع في هذه الحروف دون الألف، لأن الألف قد تلغى وقد تقع الهمزة وهي موقعا واحدا.

١٠- أنه سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريبا إلى الإفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه، أو يظفر به، فأما الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام المبتذل، والقول المسفسف، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة، فيطلب فيه الممتنع، أو يوضع فيه الإعجاز، ولكن لو وضع في وحشي مستكره، أو غمر بوجوه الصنعة، وأطبق بأبواب التعسف والتكلف، لكان لقائل أن يقول فيه ويعتذر، أو يعيب ويقرع، ولكنه أوضح مناره، وقرب منهاجه، وسهل سبيله، وجعله في ذلك متشابها متماثلا، وبين مع ذلك إعجازهم فيه.

وقد علمت أن كلام فصحائهم، وشعر بلغائهم، لا ينفك من تصرف في غريب مستنكر، أو وحشي مستكره، ومعان مستبعدة، ثم عدولهم إلى كلام مبتذل وضيع، لا يوجد دونه في الرتبة، ثم تحولهم إلى كلام معتدل بين الأمرين، متصرف بين المترلتين، فمن شاء أن يتحقق هذا، نظر في قصيدة امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل..

واعلم أن من قال من أصحابنا إن الأحكام معللة بعلل موافقة لمقتضى العقل، جعل هذا وجها من وجوه الإعجاز، وجعل هذه الطريقة دلالة فيه، كنحو ما يعللون به الصلاة، ومعظم الفروض وأصولها، ولهم في كثير من تلك العلل طرق قريبة، ووجوه

تستحسن، وأصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك، ولكن الأصل الذي يبنون عليه عندنا غير مستقيم، ..»

الفخر الرازي وكتابه: (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز):

فبعد أن عرض للوجوه التي قيلت في الإعجاز وردها، علل إعجاز القرآن بفصاحته التي ترجع إلى الألفاظ، وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب، ويقصد بالفصاحة ما يرادف البلاغة.وهو يذهب إلى أن مبحثها من أجل المباحث وأشرفها، وهي إما أن تكون راجعة إلى المفردات، وإما إلى تأليفه وتراكيبه .

وقد بحث في كتابه هذا المحسنات اللفظية والصور البيانية، كما وقف كالرماني عند طبقات البلاغة الثلاث التي يرى أن القرآن منها في أعلى طبقة وهي الوجه المعجز فيه.[1]

ثم تتابعت الدراسات لدى كثير من المتقدمين على هذا المنهج، مؤكدة له ومصرحة بأنه الوجه المعجز في القرآن، من ذلك:

يقول حازم القرطاجني: وجه الإعجاز في القرآن، من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه جميعه استمراراً لا يوجد له فترة، ولا يقدر عليه أحد من البشر، لأنهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحاء كلامهم في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه.[2]

ويقول المراكشي: «إن الإعجاز حاصل ببلاغة القرآن، وروعة نظمه وتعرف الجهة المعجزة فيه بالتفكير في علم البيان»[3] حتى ألزموا من ابتغى تفسير القرآن الوقوف على علم البلاغة، لما لهذا العلم من أهمية في معرفة الأسلوب، وسلامة الحكم، يقول

١- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : الرازي.

٢- الإتقان : ٤/ ٩ نقله عن منهاج البلغاء.

٣- الإتقان : ٤/٩ نقله عن شرح المصباح.

السكاكي:[1] «إن الوقوف على تمام مراد الحكيم تعالى وما تقدس من كلامه، مفتقر إلى هذين العلمين –أي البيان والمعاني–كل الافتقار، فالويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل». وأن شأن الإعجاز–كما يقول–لا طريق إلى تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة إلا التمرن على علمي المعاني والبيان. وهو عين ما نادى به الزمخشري في مقدمة تفسيره أيضا، وعلى هذا النحو سار كثير من العلماء بعدهم.

قيمة البحث البلاغي في القرآن لدى المتقدمين:

إن من الإنصاف القول بأن تحليلات الأقدمين الفنية، وتشخيصهم للصور القرآنية بجمال ألوانها وبحركاتها وانفعالاتها النفسية وآثارها، كثيرا ما تطرق باب البيان وسره، فتصيب موطن السحر، وتبرز سر الجمال، وقد مضى معنا أمثلة لها، وهكذا ما جاء به السيوطي في إتقانه من تعقيبات على تحليلات الأقدمين لعدد من الأمثلة البلاغية في القرآن الكريم. وهذا ما تجده أيضا في دراستهم لكنايات القرآن اللطيفة، ومجازاته البديعة التي بحثها الأقدمون وأبانوا عن نواحي روعتها وجمالها ودقتها، مثاله:

في باب المجاز اللغوي: قوله تعالى:﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾ البقرة:١٩، فقد أطلق الكل ﴿أصابعهم﴾ وأراد الجزء، أي أناملهم، ونكتة التعبير بالأصابع عن الأنامل؛ فيه إشارة إلى إدخالها على غير المعتاد، مبالغة في الفرار وعدم سماع أصوات الصواعق المفزعة.[2] وفي هذا تصوير لحالتهم النفسية، وما أصابهم من الذعر والهلع منها، حتى أرادوا أن يدخلوا أصابعهم بدل الأنامل.

وهو ما نجده في التعبير عن مأوى الكافرين بقوله:﴿فأمه هاوية ﴾القارعة:٩ . فكما أن الأم كافلة لولدها وملجأ له، فإن النار للكافرين كافلة ومأوى ومرجع.

١– المفتاح :٧٠.

٢– الكشاف:١/٤٤– ، البرهان : ٢/٢٦٢ والإتقان :٢/ ٦٠.

وهكذا في كناياته الجميلة التي يعلمنا فيها حسن الحديث وأدب التعبير،[1] فإذا أراد الله سبحانه أن يعبر عن الغاية من المعاشرة الزوجية –التناسل–رمز إليه بلفظ (الحرث) بقوله: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ البقرة:٢٢٣، ويجعل وصف العلاقة الزوجية بما فيها من مخالطة بأنها لباس من كل منهما للآخر:﴿هُنَّ لباس لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ ﴾ البقرة:١٨٧.

وحينما يعبر عن عفة المؤمنات والمؤمنين يقول:﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ الأحزاب:٣٥. والمراد فروج القمصان والثياب، فما تنفرج ثيابهم عن ريبة ولا تنكشف قمصانهم عن منكر، بل نقية ثيابهم، طاهرة أذيالهم.[2] وفي هذا من التوسع في المعنى ما لا يتحصل في غيره فهو يعني أنهم يتحرون الحصانة والعفة في أدنى صفاتها، فمن باب أولى يتحرونها فيما هو أعظم.

إلا أن تحليلاتهم كثيرا ما تكون محكومة بالاصطلاحات الفنية، فإذا ألقينا نظرة على كتاب من الكتب التقليدية في (علوم القرآن) كالإتقان للسيوطي–مثلاً– لنستخلص منه ما يتعلق بالأسلوب القرآني بوصفه وجهاً من وجوه الإعجاز، وقعنا على أبواب مختلفة توحي عناوينها بالكثير مما ينطق به مفهومنا الحديث للإعجاز، ولكننا حين نمضي في قراءتها لا نستطيع أن نتملى فيها جمال القرآن، وإنما نكوّن بها فكرة عن ولوع علمائنا الأقدمين بالتفريع والتبويب، واستنباط القواعد البلاغية الكثيرة من الشواهد القليلة. فالسيوطي يلتقط القضايا والمباحث القرآنية البلاغية مما ورد في المصنفات السابقة، وهو يشير إليها بأمانة، فيدرس التشبيه، والاستعارة، والكناية، والحقيقة والمجاز، والخبر والإنشاء، وغيرها، ولا يكاد ينسى جملة تبرز الجمال القرآني في عنصره الأسلوبي واعتباره عنصرا أساسيا في الإعجاز، إلا أن هذه الدراسات

١– الإتقان ٢/٦٠ وينظر: التصوير الفني :٩١.

٢– تلخيص البيان :٣٥٤ والبرهان :٢/٣٠٤–٣٠٥ والإتقان : ٢/٧٩.

التقليدية لا تكشف في الحقيقة منبع السحر الأصيل في القرآن، لأن السحر كامن في صميم النسق القرآني، في كل مقطع منه ومشهد، ومن الأمثلة التي تبين ذلك:

قوله تعالى:﴿والصبح إذا تنفس﴾التكوير:١٨. يقول السيوطي:«استعير خروج النفس شيئا فشيئا، لخروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلا قليلا، بجامع التتابع على طريق التدريج، وكل ذلك محسوس»[١] دون أن ينبه على ظاهرة التشخيص وسمتها الواضحة في القرآن، فالحياة تخلع في هذه الآية على الصبح، حتى كأنه صار كائنا حيا يتنفس، بل إنسانا ذا عواطف وخلجات نفسية، تشرق الحياة بإشراقة من ثغره المنفرج عن ابتسامة وديعة وهو يتنفس بهدوء[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ الأنبياء:٩٨. يقول السيوطي: «فالقذف والدمغ مستعاران، وهما محسوسان والحق والباطل مستعار لهما، وهما معقولان»[٣] ويقول الشريف الرضي: «الدمغ إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال عن طريق الغلبة والاستعلاء، فكأن الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه»[٤].

فجمال النص وإشعاعه يكاد ينطق بالإفصاح عن نفسه حين نتخيل في الآية الحق، وهو معنى مجرد، أشبه بالجسم القوي العنيف الذي ينفذ في جسم الباطل الضعيف الخفيف. فيرزح الباطل تحت وطأة الحق الشديدة، التي تدمغه وتكاد تلصقه بالتراب وتزهق روحه، وهكذا يجتمع في هذا المثل التجسيم والتشخيص والتخييل، أما التجسيم ففي تصوير الحق بالقذيفة الثقيلة، وأما التشخيص ففي دمغ الحق الباطل وإزهاقه إياه، وأما

١- الإتقان : ٢/ ٧٤.
٢- مباحث في علوم القرآن : ٣٢٤.
٣- الإتقان : ٢/ ٧٤
٤- تلخيص البيان في مجازات القرآن:الشريف الرضي : ٢٨٨.

التخيل ففي تصور نوع الثقل الذي تحدثه حركة القذف ثم الدمغ ثم الإزهاق، فهي أصوات شداد توشك أن تكون صدىً لعظام الباطل وهي تتحطم وتقعقع.[1]

وفي قوله تعالى: ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تَمَيَّزُ من الغيظ﴾ الملك: ٧-٨، قال عنها السيوطي: [2]« إنها استعارة معقول لمحسوس بجامع عقلي» مع أن تشخيص جهنم في هذه الآية هو الذي يجعل المشهد حافلاً بالحياة والحركة، فهي مغيظة محنقة تحاول أن تكظم غيظها حين ألقي فيها المجرمون، وكأن منظرهم البشع كان أشد من أن تتحمله وتصبر عليه، فتلقفتهم بألسنة لهبها وهي تئز وتشهق، وبمهلها وقطرانها وهي تغلي وتفور حتى كاد صدرها ينفجر حقدا عليهم، فليس في الصورة مجرد استعارة معقول لمحسوس، وإنما استعيرت لجهنم شخصية آدمية لها انفعالات وجدانية وخلجات عاطفية ، تبعث الخيال على تمليها، فهي تشهق شهيق الباكين، وهي تغضب وتثور، وهي ذات نفس حادة الشعور.[3]

ولقد أجاد الرماني في (نكته) في إبراز هذه الصورة، وأحسن الشريف الرضي في تمليه لجمالها حينما قال:«وصف النار بصفة المغيظ الغضبان، الذي من شأنه أن يبالغ في الانتقام، ويتجاوز الغايات في الإيقاع والإيلام» [4]. لكنها لم تكن واضحة تماما، ولم يتم فيها رسم الصورة الفنية المتكاملة.

إن استشعارهم ذلك الجمال كان بطبيعة الحال متأثراً بمنهجهم الذي يجعل للقاعدة البلاغية المكان الأول، ولاشك أن للتقعيد مساوئ كثيرة، أهمها: أن جفاف العاطفة يفقد المشهد المرسوم قيمته التصويرية الفنية.[5]

١- مباحث في علوم القرآن : د. صبحي الصالح : ٣٢٥.
٢- الإتقان ٢ / ٧٥.
٣- التصوير الفني :٨٤ ومباحث في علوم القرآن :٣٢٥.
٤- تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٣٣٩.
٥- مباحث في علوم القرآن :٣٢٦.

وأخيرا فإن هذا التعقيب على أمثلة المتقدمين ليس المراد منه مناقشة اختلاف المصطلحات، أو دعوة إلى تبديل المصطلحات البلاغية لدى المتقدمين بمصطلحات حديثة، وإنما المراد أن لا نغفل عن الحركة والحياة والتناسق الفني في المشاهد القرآنية، وبعد ذلك لا ضير تحت أي تسمية واصطلاح جاءت، بعد أن تبث فيها الحياة وتنفخ فيها الروح، وتصور المعاني بريشة الحياة وأصباغها وألوانها البديعة التي تستفز الشعور، وتبقى توقيعاتها على أوتار القلب البشري، داعية له إلى التدبر والتفكر والخشوع.

المطلب الثاني

وجوه الإعجاز البلاغي والبياني

تمهيد في دراسات المحدثين للبيان القرآني:

إذا تعرضنا لدراسات المحدثين في هذا الباب فإننا نجدها في أغلبها قريبة من آراء المتقدمين، فهي في الغالب تتبع آثارهم، ومكملة لطريق خلص إليه أسلافهم، إلا أنها تتسم بالجدة في العرض، والحيوية في الرسم والتشخيص، والتفصيل في الدراسة للخصائص والسمات الكاشفة عن جمال الأسلوب القرآني وبيانه المعجز.

ومن الدراسات الحديثة المتخصصة الرائدة؛ دراسة الرافعي الذي خص القرآن الكريم بكتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، وأبان عن أن إعجازه يرجع إلى الأسلوب والنظم والتأليف، فقال:«وهذا الأسلوب إنما هو مادة الإعجاز في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز...»[1]

١- إعجاز القرآن : ٢١٣.

والرافعي يكاد يشكل حلقة وصل بين المتقدمين والمحدثين، فهو يرى أن نسق الحرف في الكلمة، والكلمة في الجملة، ونسق الجملة في الجملة، من شأنه أن يقدم أسلوبا فريدا في نظمه، معجزا في وجوه تركيبه، مع ما أذهلهم عن أنفسهم من هيبة رائعة، وروعة مخوفة تجذبهم إليه[1].

ثم تتابع الدارسون المحدثون بعد الرافعي يكشفون عن روائع البيان القرآني، ويدلون بآرائهم بتقديم نماذج رائعة في درس الإعجاز، وكان الإعجاز البلاغي بصوره الحديثة في اصطلاحاته وأسلوبه وتحليلاته البديعة هو اللون الذي طبعت به دراسات المحدثين في إعجاز القرآن غالبا، ابتداء من الرافعي،ومرورا مع دراز في:(النبأ العظيم)، وعائشة عبد الرحمن في: (الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق) وفي (التفسير البياني للقرآن)، وسيد قطب في: (التصوير الفني) وفي تفسيره أيضا، ود.حنفي محمد شرف في: (إعجاز القرآن البياني)، ود. بيومي رجب: (البيان القرآني)، وغيرهم كثير. فقد تجلت في دراسة هؤلاء سمات التجديد التطبيقي في منهج البيان القرآني، من خلال الكشف عن الخصائص الأسلوبية في التعبير القرآني وإبراز الصور الفنية، وملامح التشخيص والتخييل والتجسيم وإبراز صوت الحس،[2] وتنوع التوقيعات، والتناسق الفني، والوشيجة المتلاحمة في البنية إلى غير ذلك مما يلحظ المتتبع في الدراسات البيانية الحديثة. ولغرض الإيجاز فإننا سنعرض أهم خصائص الأسلوب القرآني:

١- إعجاز القرآن : ٢٢٤ وينظر: إعجاز القرآن : عبد الكريم الخطيب ٣١٣ .

٢- صوت الحس: هو الذي يتكون من دقة التصوير المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب، بمجاذبة النفس مرة، ومداهنتها مرة أخرى، والتنقل بها من شأن إلى شأن حتى تتصل بالمعنى، وتصبح كأنها هي التي تطلبه، فتقع في أسره. إعجاز القرآن: الرافعي:٢٥١.

أولاـــ خصائص الأسلوب القرآني ومميزاته:

١- معنى الأسلوب:

يطلق الأسلوب في اللغة إطلاقات متعددة: فيقال: للفن، وللوجـــه، وللمـــذهب، وللطريق بين الأشجار، ولطريقة المتكلم في كلامه. وأنسب هـــذه المعـــاني بـــالمعنى الاصطلاحي هو: الأخير، أو الفن، أو المذهب مع التقييد .

الأسلوب في الاصطلاح: هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المـــتكلم في تـــأليف كلامه، واختيار ألفاظه. أو هو بعبارة أخرى: المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه. أو هو:الفن الكلامي الذي انفرد به المتكلم.[1]

أسلوب القرآن: هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه. ولا غرابة أن يكون للقرآن أسلوبه الخاص به، فإن لكل كلام إلهي أو بشـــري أســـلوبه الخاص به، بل تتعدد الأساليب في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها .

الفرق بين الأسلوب والمفردات والتراكيب :

الأسلوب هو غير المفردات والتراكيب التي يتألف منها الكلام، لأن الأسلوب هو الطريقة التي ينتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه، ولذا اختلفـــت الأساليب باختلاف المتكلمين من ناثرين وناظمين، مع أن المفردات التي يســـتخدمها الجميع واحدة، والتراكيب في جملتها واحدة، وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة، وهذا هو السر في كون القرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتـــهم فمـــن حروفهم تألفت كلماته، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه. وعلى قواعـــدهم العامـــة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه.

١- الأسلوب: أحمد الشايب:٨ ومناهل العرفان:٢/٣٥١ وينظر: الإتقان:٤/ ٩.

وإن المثير للعجب أنه مع دخوله على العرب من هذا الباب الذي عهدوه، ومع مجيئه بهذه المفردات والتراكيب التي توافروا على معرفتها، قد أعجزهم بأسلوبه وطريقته الكلامية، ولو دخل عليهم من غير هذا الباب لأمكن أن يتلمس لهم عذر،كما قال: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا: لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي﴾ فصلت:٤٤.

ومثال الفارق بين الأسلوب وبين المفردات والتراكيب، مثال صناعة الخياطة وصناعة الصيدلة أو تحضير العقاقير والأدوية، فالخياطون يختلفون فيما بينهم ما بين خامل ونابه في صنعته، وضعيف وبارع في حرفته، وهذا الاختلاف لم يجئ من ناحية مواد الثياب المخيطة، ولا من الآلات والأدوات والطرق العامة المستخدمة في الخياطة، وإنما جاء من جهة الطريقة الخاصة التي اتبعت في اختيار هذه المواد وتأليفها، واستخدام قواعد الصناعة في شكلها وهندستها. وكذلك الصيادلة فهم يختلفون لا من حيث مواد الأدوية وعناصرها، ولا من حيث القواعد الفنية العامة في تركيبها، بل من حيث حسن الاختيار لهذه المواد، ودقة تطبيق هذه المواد في تحضير الأدوية. كذلك البيان اللغوي في أية لغة ما هو إلا صناعة، موادها وقواعدها واحدة في المفردات والتراكيب، ولكن البيان يختلف باختلاف الطرائق والأساليب، لذلك تجد أهل اللغة يؤدون الغرض الواحد بوجوه مختلفة من المفردات، ومذاهب شتى من التراكيب، ويتفاوت حظها من الجودة والرداءة بمقدار ما بينهم من اختلاف في طرائق اختيارهم لما اختاروه من مواد اللغة إفرادا وتركيبا.

وأن مفردات اللغة منها متآلف في حروفه ومتنافر، وواضح وخفي، ورقيق وثقيل، وموافق لقياس اللغة ومخالف له، ومنها عام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين، ومعرف ومنكر، وظاهر ومضمر، وحقيقة ومجاز. وكذلك التراكيب منها حقيقة ومجاز، ومتآلف الكلمات ومتنافرها، وواضح المعنى ومعقده، وفيها تقديم وتأخير، وفصل ووصل، الخ.

وهذه المتنوعات من الكلام ليست يحسن استعمالها إطلاقا، ولا شيء منها يسوء استعماله إطلاقا، بل لكل مقام مقال، فما يحسن في موطن قد يقبح في موطن آخر، وما يجب في مقام قد يمتنع في مقام آخر.

فالأمر يرجع إلى حسن الاختيار من هذه المتنوعات بحسب ما يناسب الأحوال والمقامات، فللأذكياء خطابهم وكذا الأغبياء، وهكذا للعقائد خطابها الخاص وللجدل والقصص والوعيد والوعد هكذا، وغيرها أيضا، مما يجعل من العسير الإحاطة بجميع أحوال المخاطبين، ويكون معه اختيار المناسبات غير يسيرة.

فالأسلوب البليغ هو صورته الفنية أو طابعه الخاص الذي تهيأ له برعاية صاحبه لجملة الأحوال ومناسباتها في هذا الكلام،وأنه على حسب ما تحتويه أساليب الكلام والمناسبات يتفاوت هذا الكلام في درجات البلاغة علوا ونزولا،وفي حظه عند السامعين ردا وقبولا، ولم يظفر الوجود بكلام بلغ الطرف الأعلى من البلاغة غير القرآن الكريم.[1]

٢-خصائص الأسلوب القرآني[2]:

مهما حاولنا تحديد الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن ومزاياه التي توافرت فيه فجعلته معجزا، فإننا لا يمكننا أن نفي بها، فما هي إلا قُلّ من كُثّر، وقطرة من بحر، فالإحاطة بها ممتنعة، وما نذكره ما هو إلا على سبيل التمثيل.

الخاصية الأولى : مسحة القرآن اللفظية:

ونريد بها تلك السمة التي تتجلى في جماله اللغوي، والظاهرة العجيبة التي امتاز بها في رصف حروفه، وترتيب كلماته، دونه كل ترتيب.

١- مناهل العرفان: ٢/ ٣٥٢-٣٥٤.

٢- ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية:الرافعي:٢٢٩، النبأ العظيم: ١٠٣، مناهل العرفان:٢/ ٣٥٨، التبيان في علوم القرآن:محمد على الصابوني: ١٠١، ومن بلاغة القرآن: د.أحمد أحمد بدوي: ٢٤٥.

وذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض، فهذا ينقر وهذا يصفر، وهذا يخفي وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، إلى غير ذلك مما هو مقرر في مخارج الحروف وصفاتها، تتجلى في هذه المجموعة المؤتلفة المختلفة، تجمع بين اللين والشدة، والخشونة والرقة، على وجه دقيق محكم، امتزجت فيه جزالة البداوة في غير خشونة، برقة الحضارة من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق العرب بكل يسر وسهولة، حتى أنك لو أدخلت شيئاً من كلام الناس محل كلمة، أو قدمت وأخرت فيه لاختل النظام في آذان سامعيه، واعتل مذاقه في أفواه قارئيه.

الخاصية الثانية: إرضاؤه العامة والخاصة:

فالقرآن إذا قرأته العامة أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم، وإذا قرأته الخاصة أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه أكثر مما يفهمه العامة منه، وليس كذلك كلام البشر، فإنه إن أرض العامة لم يرض الخاصة، وإن أرض الخاصة لم يرض العامة، أما القرآن فإن ألفاظه وأسلوبه قد سيقت تخاطب الناس جميعا بما يدركونه منها، كل حسب استعداده وتطور ثقافته وعلومه، فنظرة العامة إلى قوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب﴾ الطارق:٥-٧، تختلف عن قراءة عالم الحياة (البيولوجي) لها. وقراءة العامة لقوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾ الفرقان:٦١، غير قراءة اللغوي، وهما غير قراءة الفلكي، وكلها معان صحيحة داخلة تحت دلالة النص. وما قرأه الناس سابقا في قوله تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ النحل:٨، غير قراءتنا لها، وهي غير ما يقرأه اللاحقون ويفهمونه مما يستجد ويكتشف. دون أن تتعارض هذه القراءات وتتخالف، وإنما هي تتواصل

وتتكامل، ودون أن تتعارض مع هدايات القرآن. وهذه خاصية لا تجدها في غير القرآن.[1]

الخاصية الثالثة: إرضاؤه العقل والعاطفة:

فأسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معا، ويجمع بين الحق والجمال، استمع إليه وهو يقيم الدليل العقلي على إمكانية البعث والإعادة، كيف يسوق استدلاله بأسلوب يهز القلب، ويحرك الوجدان، ويمتع العاطفة، ويقنع العقل، في آن واحد، يقول سبحانه:﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جناتٍ وحبَّ الحصيد، والنخلَ باسقات لها طلعٌ نَضيد، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتة كذلك الخروج﴾ ق:٦-١١، وقوله: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إنّ الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شئ قدير﴾ فصلت:٣٩، فتأمل أسلوبه المحرك للعاطفة والمثير للوجدان، ببراعته وجماله وتصويره، في الوقت الذي يخاطب العقل ويقنعه بالدليل على البعث في قوله: ﴿ كذلك الخروج﴾ وقوله: ﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتى﴾، فيستقبل خطابه عقل الإنسان وقلبه معا بأنصع دليل، وأمتع عرض.

وحين يسوق قصة يوسف عليه السلام، تجده يأتي بالعظات البالغة، ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة على وجوب الاعتصام بالعفة والشرف والأمانة، فيقول في موضع منها : ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾ يوسف:٢٣، فتأمل كيف قابل

١ – من روائع القرآن:البوطي : ١٣٦ .

دواعي الغواية الثلاث بدواعي العفاف الثلاث، مقابلة صورت من القصص الممتع جدالا عنيفا ين جند الرحمن وجند الشيطان، ووضعتهما أمام العقل في كفتي ميزان.

وهكذا تجد أسلوب القرآن الكريم، مزيجا حلوا سائغا، يخفف على النفوس تجعها الأدلة العقلية، ويرفه عنها باللغات العاطفية، ويوجه العقل والعاطفة معا للهداية والإقناع. وليس هذا من سمات أساليب البشر، فهما أوتي من إمكانات لم يتمكن أن يضعهما في كفتين متكافئتين، وإن كانت فَرَضا، فلا تكون إلا على سبيل البدل والمناوبة، لأنه: ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ الأحزاب:٤، فإن الكاتب إذا أعطى العقل حقه، بخس العاطفة حقها، وإذا وفى بالعاطفة طفف بحق العقل، حتى قسموا الأساليب النثرية إلى: أسلوب أدبي وأسلوب علمي، وما جمع الأمرين وتفرد به سوى القرآن.

الخاصية الرابعة: ترابط الأجزاء وتناسب السرد:

وذلك ما نجده في جودة سبكه وإحكام سرده، فقد بلغ في ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره مبلغا لا يدانيه كلام البشر، رغم تنوع مقاصده، وتلون موضوعاته. فإذا تأملت في القرآن تبين لك تآخي كلمات الجملة، وتناسق جمل السورة، وتناسب السورة مع السور الأخرى، في وحدة متشابكة متعانقة، جعلت منه كتابا سَوِيَّ الخَلْق حَسن السَمْت، كأنما هو سبيكة واحدة وسلسلة متعانقة الحلقات:﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ الزمر:٢٨ .

الخاصية الخامسة : براعته في تصريف القول :

ونعني بها ثروته في أفانين الكلام، وذلك بأن يورد المعنى الواحد بألفاظ وطرق مختلفة تنقطع دونها أنفاس الفصحاء والبلغاء، من ذلك تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بوجوه عدة متنوعة منها الحقيقة ومنها المجاز مثل :

١-الإتيان بمادة الأمر صريحة، نحو:﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ النساء:.٥٨

٢-الإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين:﴿كتب عليكم الصيام﴾ البقرة: ١٨٣.

٣-الإخبار بكونه على الناس:﴿ولله على الناس حِجُّ البيت﴾ آل عمران: .٩٧

٤-الإخبار عن الفعل بأنه خير:﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خير﴾ البقرة:٢٢٠

٥-طلب الفعل بصيغة الأمر: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاةِ الوسطى ﴾ البقرة:.٢٣٨

٦- الإخبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تحقيقه من غيره:﴿ ومن دخله كان آمنا﴾ آل عمران:٩٧، أي: مطلوب من المخاطبين تأمين من دخل الحرم.

٧- الإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه: ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ البقرة:٢٢٨، أي: مطلوب منهن أن يتربصن.

٨- طلب الفعل بصيغة الأمر:﴿حافظوا لى الصلوات والصلاة الوسطى﴾ البقرة: ٢٣٨.

٩- طلب الفعل بصيغة المضارع الذي دخلت عليه لام الأمر:﴿ثم لِيقضوا تفثهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ الحج:.٢٩

١٠- وصف الفعل وصفا عنوانيا بأنه بر:﴿ولكن البر من اتقى﴾ البقرة:.١٨٩

١١- وصف الفعل بالفرضية:﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم﴾ الأحزب:٥٠.

ترتيب الوعد والثواب على الفعل:﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم﴾ الحديد:.١١

١٢–ترتيب الفعل على شرط قبله:﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾ البقرة:.١٩٦

١٣– ترتيب وصف شنيع على ترك الفعل:﴿ ومن لم يحكم بما أمر الله فأولئك هم الكافرون﴾ المائدة:٤٤. ونحو ذلك .

وهكذا تعبيره عن النهي، وعن الإباحة، وغيرها، بأساليب وطرق متنوعة، بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، وتكلم وغيبة وخطاب، وحضور ومضي واستقبال، واسمية وفعلية، ونحوها، بحيث يخلق على الأسلوب جدة وروعة، ولباسا فضفاضا، ومسحة جمال، وحلاوة لا يمل منها القارئ ولا يسأم، بل تجده في انتقاله من أسلوب إلى آخر، ومن نمط كلام إلى نمط آخر، سريعا لا تحس معه بالانتقال والتغيير فيه.

الخاصية السادسة: جمعه بين الإجمال والبيان:

فمع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد من الناس، فإنهما اجتمعتا في القرآن، فإنك إذ تسمع أو تقرأ الجملة فإذا هي بينة مجملة، بينة لأنها واضحة المغزى وضوحا يريح النفس دون عناء تنقيب لأول وهلة، فإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معان جديدة كلها صحيحة أو تحتمل الصحة، وكلما أمعنت أكثر زادتك من المعارف والأسرار أكثر، على حد قول القائل :

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا

وبهذه الخاصية وجد كل أصحاب المذاهب والفنون بغيتهم فيه، ووسعهم جميعا.

الخاصية السابعة: قصده في اللفظ مع وفائه بالمعنى:

ومعنى ذلك أنك تجد في كل جمل القرآن بيانا وافيا بحسب ما تحتاجه النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من الهداية، فلا تجد لفظا دخيلا أو زائدا على المعنى .

إن القرآن يستثمر دائما وبرفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني، وتلك ظاهرة بارزة فيه كله، يستوي في ذلك مواضع إجماله وإطنابه، ولا يمكن تأدية تلك المعاني كاملة العناصر والحلي بأقل أو أكثر من ألفاظه.

ولذلك فليس حقيقا ما يصفه بعضهم بالزيادة أو الإقحام لبعض الحروف والكلمات، زيادة معنوية غرضها التأكيد، وقد يكون الموضع ليس بحاجة إلى مثل هذا التأكيد.

ولنأخذ هذا المثل الذي أورده في مثل هذا الموضع (د.محمد عبد الله دراز) وهو قوله تعالى:﴿ليس كمثله شيء﴾ الشورى:١١.

فقد ترادفت كلمةُ أكثرِ أهل العلم على زيادة (الكاف)،بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة، فراراً من المحال العقلي الذي يفضي عليه بقاؤها على معناها الأصلي في التشبيه، إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية التشبيه عن مثل الله،فتكون تسليماً بثبوت المثل له سبحانه، تقول: (ليس لفلان ولد يعاونه) إذا لم يكن له ولد قط، أو كان له ولد لا يعاونه.

وقليل من العلماء من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها، لأنها لا تؤدي إلى المحال لا نصا ولا احتمالا، لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضا. وذلك أنه لو كان مثل لله، لكان لهذا المثل مثلٌ قطعا، فإن كل متماثلين يعد كلاهما مثلاً لصاحبه، وإذاً لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل وهو المطلوب.

وهذا القول أيضاً مُصَحِّحٌ لا مرجح، فهو ينفي الضرر عن استخدام هذا الحرف، ولا يثبت له فائدة، لأنه لو كان المراد هذا لكان مثاله مثال من قال مخبرا عن أخيك: هذا ابن أخت خالتك. أما البيان السليم لمعنى هذا التركيب فهو من طريقين، أحدهما أدق مسلكا من الآخر:

الطريق الأول: وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور: وهو أنه لو قيل: (ليس مثله شيء) لكان نفيا للمثل المكافئ، وهو المثل التام المماثلة فحسب، لأن هذا المعنى هو الذي ينساق

إليه الفهم من إطلاق لفظ المثل، وعندها فقد يدب إلى الأوهام، أنْ لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها، وعسى تكون للأنبياء أو الملائكة أو غيرهم، فيكون لهم بالإله الحق شبهٌ ما، فكان وضع هذا الحرف إقصاء للعالم كله عن المماثلة، وعما يشبه المماثلة، أو يدنو منها، وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فكأنه قال: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً له، فضلاً عن أن يكون مثلاً له على الحقيقة.

الطريق الثاني: وهو أدق مسلكاً، وهو أن المقصود الأول من هذه الجملة –وهو نفي التشبيه– وإن كان يكفي لأدائه أن يقال: (ليس كالله شيء) أو: (ليس مثله شيء) ولكن هذا القدر ليس كل ما ترمى إليه الآية، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم، فإنها تريد أيضاً أن تلفتك إلى وجه حجته، وطريق برهانه العقلي.

لأنك إذا أردت أن تنفي نقيصة عن امرئ في خلقه فتقول: (فلان لا يكذب ولا يبخل) فإن قولك هذا سيكون دعوى خالية من الدليل، فإذا زدت فقلت: (مثل فلان لا يكذب ولا يبخل) لم تكن مشيراً إلى شخص آخر يماثله في ذلك، بل كان تبرئة له هو ببرهان كلي، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشمائله الكريمة لا يكون كذلك. لوجود التنافي بين هذه الصفات العالية التي هو عليها وبين هذه الصفات الذميمة.

وعلى هذا المنهج البليغ وضعت الآية الكريمة قائلة: (مثله تعالى لا يكون له مثل) بمعنى أن من كانت له تلك الصفات العليا، والأسماء الحسنى، والمثل الأعلى، لا يمكن أن يكون له شبيه ومثل، ولا يتسع الوجود لاثنين من جنسه، فلا جرم جيء فيها بلفظين كل واحد منهما يؤدي معنى المماثلة، ليقوم أحدهما ركناً في الدعوى، والآخر دعامة لها وبرهاناً، فالتشبيه المدلول عليه بـ(الكاف) لما تصوب إليه النفي تأدى به أصل التوحيد المطلوب، ولفظ (المثل) المصرح به في مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب. [1]

١–النبأ العظيم:١٢٧–١٣٥بتصرف. وينظر: الكشاف وتفسير النسفي:١٠١/٤.

الخاصية الثامنة : الفخامة والقوة والجلال:

يكتسبها من انتقاء ألفاظ لا امتهان فيها ولا ابتذال، ومن استخدام ألوان التوكيد والتكرير، استمع إليه يصف الأبرار فيما يخشونه وما ينتظرهم ووصف جنة الخلد:﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، عيناً يشرب بها عبادُ الله يفجرونها تفجيرا، يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شرُّه مستطيرا، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا، فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرةً وسرورا، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا، متكئين فيها على الأرائك لا يَرَوْن فيها شمساً ولا زمهريرا﴾ الإنسان: ٥-١٣. واسترسل في قراءتها إلى نهاية السورة، ليظهر لك أن الأسلوب القرآني يكتسب قوته وفخامته من اختيار ألفاظه وموسيقاه.

الخاصية التاسعة : التصوير:

والقرآن إذ ما ينقل الحوار أو يورد القصة يبعث فيها الحياة، ويجسد الأمور المعنوية في صور شاخصة متحركة تكاد تشاهدها. ذلك أن تصوير الأمر المعنوي في صورة الشيء المحسوس يزيده تمكناً في النفس، يقول سيد قطب:[1] «إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها فتستحيل القصة حادثًا يقع ومشهدًا يجري لا قصة تُروى ولا حادثًا قد مضى».

فاستمع إلى لون الحوار في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أظلمُ مِمَّن افْترى على الله كذباً أو كذَّب بآياته أولئك ينالُهم نصيبُهم من الكتاب، حتى إذا جاءتهم رسُلُنَا يتوفَّوْنَهم، قالوا: أين ما كنتم تدعون من دون الله؟ قالوا: ضَلُّوا عنّا، وشَهِدوا على أنفسهم أنهم

١- التصوير الفني : ١٥٦.

كانوا كافرين. قال: ادْخلوا في أممٍ قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النـــار، كلما دخلت أمةٌ لعنت أختها، حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا، قالت أخراهم لأولاهم: ربَّنا، هؤلاء أضلونا، فآتهم عذاباً ضعفاً من النار، قال: لكـــل ضِـــعْفٌ، ولكـــن لا تعلمون. وقالت أولاهم لأخراهم: فما كان لكم علينا من فضل، فذوقوا العذاب بما كنتم تَكْسِبون﴾ الأعراف: ٣٦-٣٩.

واسمع إلى قوله: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء مُنْهَمِر، وفجّرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قُدِر﴾ القمر:١١-١٢، فهو ينقل الحقيقة مصورة، إنه لـــيس مـــاء عادي إذن هذا المنهمر من السماء والمتفجر من الأرض، إنه قدر، إنه ماء يتم بقـــدر، تسبح فيه الروح بكل سبحاتها، ويلامس فيه الخيال صورته الحسية المشاهدة. وقـــد سبق معنا أمثلة للتصوير بالتشبيه والاستعارة، بما فيهـــا مـــن تجســـيم وتشـــخيص وحركة.[1]

الخاصية العاشرة: تلوين الأسلوب بين القوة واللين:

كما يتسم الأسلوب القرآني بالهدوء عندما يتطلب الأمر هدوءا وتـــأملا وتـــدبرا، كما في الآيات التي تدعو إلى إعمال الفكر، وفي القصص والأحكام، كقوله: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزرَ أتتخذُ أصناماً آلهةً ؟ إني أراك وقومَك في ضلال مبين، وكذلك نُـــرِى إبراهيمَ ملكوتَ السمواتِ والأرضِ وَلِيَكونَ من الموقنين، فلمّا جنَّ عليـــه الليـــلُ رأى كوكباً قال: هذا ربي، فلما أَفَلَ قال: لا أحب الآفلين..﴾ الأنعام: ٧٤-٧٦ الآيات.

وحينا يتدفق الأسلوب ويندفع في جمل قصيرة، مثيراً بذلك الانفعال السريع العنيف، وذلك حينما يتطلب هجوم الحق على الباطل بعنف مثير،كما في قولـــه تعـــالى: ﴿ذرني

١- التصوير الفني : ٣٦ والمعجزة الكبرى : أبو زهرة : ٩٩ .

ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالاً ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت لـــه تمهيـــدا، ثم يطمع أن أزيد، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا، سأرهقه صَعُودا﴾المدثر: ١٣_١٧.

أو عندما يتطلب الأمر إسراعاً في القيام به، كما في قوله تعالى:﴿يا أيها المدَّثِّر، قـــمْ فأنْذرْ، وربَّك فكبّرْ، وثيابَك فطهِّرْ، والرُجْزَ فَاهْجُرْ، ولا تَمْنُنْ تســـتكثر، ولِربـــك فاصبر﴾ المدثر: ١ –٧.

الخاصية الحادية عشرة: أسلوبه الخاص في الفواصل:

فمنه المسجوع ومنه المرسل، وهو في كليهما يخالف غالبا ما ألف الناس في السجع والإرسال، فالقرآن قد يلتزم حرف السجع في أكثر من آيتين، وقد تكون الســـورة كلها على حرف واحد، كسورة القمر، وقد يأتي بين الجمل المسجوعة بجملة لا تتفق فاصلتها مع ما سبقها ولحقها، وكأنما تلك الكلمة تتطلب عناية خاصـــة، تســـتدعي قدراً كبيراً من الرعاية، بما تثيره هذه المخالفة لنسق الآيات من وقفة تـــدبر وانتبـــاه زائد، وقد تتفق الفواصل في الوزن لا في الحرف الأخير، مثل: قضباً، ونخلاً.

وقد تكون الجملتان المسجوعتان قصيرتين متوازنتين في القصـــر، وقـــد تكونـــان طويلتين متوازنتين في الطول، بحيث لا يبقى من مظاهر السجع سوى الفاصلة، أمـــا الآيات نفسها فمرسلة، وإن كانت لا تتفق مع مرسل كلام الناس لوجود الفاصـــلة المتحدة أو المتماثلة في آخرها، وقد تتوازن الآي القرآنية من غير سجع.[1]

ثانيا_ وجوه من البيان القرآني:

ونلتقي في هذا الموضع بالإشارة إلى أمثلة سريعة تبرز سمات البيان القرآني ووجـــه الإعجاز فيه .

١ –الإتقان:٣/٣١١.

١) دقة التنويع في استخدام الألفاظ في القرآن:

إن القرآن الكريم يستعمل الألفاظ المفردة استعمالا خاصا، ويصطلح فيها اصطلاحات لا يلتفت إليها الكثير من الناس، وهو استعمال مقصود فيه لا يتخلف، ومن هذا الاستعمال القرآني المميز:

إن كلمة (عين) تجمع في اللغة على(أعين) وعلى(عيون)،ويفرق القرآن في استعماله للجمعين، فهو يستعمل كلا منهما في موضع غير ما يستعمل فيه الآخر.فالعيون يستعملها دائماً بمعنى عيون الماء، كقوله: ﴿في جنات وعيون ﴾الحجر:٤٥وقوله: ﴿وفجرنا فيها من العيون ﴾ يس:٣٤.وأما: (الأعين) فيستعملها بمعنى الأعين الباصرة، نحو: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ غافر١٩، ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ الأنبياء:٦١.

ويستعمل غالبا (الريح) مفردة في مقام العذاب والانتقام، ولا يستعملها للرحمة إلا بصيغة الجمع (الرياح)، قال سبحانه:﴿ ريحٌ فيها عذاب أليم ﴾ الأحقاف: ٢٤، ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ الروم: ٤٦.

ولا يستعمل لفظ (المطر) إلا في مقام العذاب والانتقام، وإذا كان المقام مقام رحمة وعطاء استعمل لفظة (الغيث)، دون أن يتخلف هذا في القرآن كله.

ومنه استعمال كلمتي (حلف، وأقسم)، فإن القرآن يفرق بينهما، تقول د.عائشة عبد الرحمن: « لا يهون أبداً أن تفسر القسم بالحلف، وصنيع القرآن يُلْفِت إلى فرق وثيق بينهما، فإن لم نقل إن القسم اليمين الصادقة حقيقة أو وهماً، والحلف لليمين الكاذبة على إطلاقها. فلا أَقَلَّ أن يكون بين دلالتهما الفرق بين العام والخاص،

فيكون القسم لمطلق اليمين بعامة، ويختص الحلف بالحنث في اليمين على ما اطرد استعماله في البيان القرآني»[1].

ومثاله:﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ القلم١٠، و﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ الواقعة: ٧٦، ﴿يوم يَبْعَثُهُمُ الله جميعاً فيحلفون له﴾ المجادلة:١٨، ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ الفجر: ٥.

ومن دقائق استخدام القرآن الكريم التي توحي بمعان زائدة على دلالتها الظاهرة استعماله لكلمة: (يشاقّ) فإن القرآن يفك إدغام القاف إذا كان الحديث عن مشاققة الكافرين لله ولرسوله، أما إذا اقتصرت الآية على ذكر مشاقتهم لله سبحانه، ولم يرد ذكر الرسولﷺ معه، فإنه يوحد الحرف ويبقيه على إدغامه. اسمع إليه:

﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى﴾ النساء:١١٥، ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ الأنفال:١٣، ﴿ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب﴾ الحشر:٤.

وقد يعبر عن أمر واحد في موضعين متشابهين بوصفين مختلفين، ومن هذا التعبير عن الأرض قبل نزول المطر عليها وتفتحها بالنبات مرة بوصفها بأنها (هامدة)، ومرة بأنها (خاشعة)، وهذا ليس مجرد تنويع، فاسمع لقوله: ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من ترابٍ ثم من نُطفة ثم من عَلَقَة ثم من مُضْغَةٍ مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ لِنُبَيّنَ لكم، ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلُغُوا أشدّكم ومنكم من يُتَوفى ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العُمُرِ لكيلا يعلمَ من بعد علم شيئا وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزت وَرَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ الحج:٥.

١- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: ٢٠٧.

ويقول: ﴿ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون، فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون، ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ فصلت: ٣٧-٣٩.

وعند التأمل في السياقين يتبين وجه التناسق؛ إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج، وهذا يتسق معه تصوير الأرض بأنها (هامدة)، ثم تهتز وتربو فتنبعث فيها الحياة بعد موتها، والجو في الثانية جو عبادة وخشوع وسجود، ويناسبه وصف الأرض بأنها خاشعة[1].

وفي استعماله لفظة (تراب) وما يقرب منها، نجده حينما يراد تصوير أعمال الذين كفروا فإنه يشبهها بالرماد، يقول سبحانه:﴿ مثلُ الذين كفروا بربهم أعمالُهم كرماد اشتدَّت به الريحُ في يوم عاصف لا يقدرون مما كَسَبُوا على شئ، ذلك هو الضلال البعيد﴾ إبراهيم: ١٨.

فهذه الآية تصور حركة الريح في يوم عاصف تسفو الرماد، وتذهب به بددا إلى حيث يستحيل جمعه أبداً، وكذلك أعمال الكافرين فإنهم لا يجدون منها شيئاً ينتفعون به يوم القيامة لأن أعمالهم لم تكن خالصة لله تعالى، فاستخدم لفظ (الرماد) لأنه المناسب تماماً مع الصورة التي يراد رسمها لأعمالهم، فهي (لا تتعلق بها الآمال) كالرماد المتناهي في الخفة حينما تشتد به الريح في يوم عاصف، يستحيل بقاء شئ منه، زيادة على أن الرماد هو من مخلفات الأشياء المحترقة، مما يناسب مآلهم وخاتمة أعمالهم، وإن اشتداد الريح به كان في يوم كامل، ولم يكن مجرد مرور، حتى لا يبقى منه أثر. وناسبه في النص أيضاً وصف الضلال بأنه بعيد، كابتعاد الرماد إلى أماكن

١- التصوير الفني :١١٨.

سحيقة نتيجة اشتداد الريح به، فكان من المناسب تمام التناسب استعمال لفظ (الرماد) بدلاً من التراب.

بينما استعمل (التراب) في موضع آخر بقوله:﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُبْطِلوا صدقاتِكم بالمنّ والأذى كالذي ينفقُ مالَه رِئَاءَ الناسِ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثلُه كمثل صَفْوانٍ عليه ترابٌ فأصابَه وابلٌ فتركَه صَلْدا لا يقدرون على شئ مما كَسَبُوا واللهُ لا يَهْدي القومَ الكافرين﴾ البقرة:٢٦٤، لا تنفعهم بشيء، فهي لا تثمر لهم نفعا، ولا تدفع عنهم عذابا، لأنها ليست خالصة لله، إنما يقدمون عليها رياءً، فكانت مثل تراب منثور على حجر أملس، يغطي ما تحته، حتى إذا جاءه مطر عظيم ذهب به كل مذهب، وكشف عن حقيقة تلك البقعة من الأرض؛ هي صفوان لا تمسك ماءً، ولا تصلح تربتها للإنبات والإثمار. فصلح هنا استخدام لفظ (التراب) دون الرماد، زيادة على أن التراب بطبعه يدل على الامتهان.

وحينما كان المقام يختلف تماماً عن مقام الموضعين السابقين، وإنما يتعلق بمواضع علم الله تعالى استعمل لفظ (الثرى) في قوله تعالى:﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ طه: ٦، والثرى قيل بأنه التراب الندي، وقيل هو: ما لطف من التراب وطاب، وقيل غيره. [1]وكلها معان مناسبة للموضع.

وهكذا لفظ: (الجبل)، فمرة يستعمل هذا اللفظ، ومرة يستعمل (الأعلام)، ففي وصف (الفلك) ورد وصفها بقوله: (كالأعلام) فيقول:﴿ومن آياته الجوارِ في البحر كالأعلام﴾ الشورى: ٣٢ وقوله: ﴿وله الجوار المنشآتُ في البحر كالأعلام﴾ الرحمن: ٢٤، والأعلام هنا يراد بها (الجبال) بينما قال في هود:﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ هود: ٤٢.

١ – المعجم الوسيط : ٩٥.

فحيث كان المقام مقام تفضل وبيان للنعم استعمل لفظ (الأعلام) تعبيراً عن (الجبل)، لأن المراد إظهار جمالها وعظمها بما يحقق المنافع والزهو للناس.

وحيث كان المقام مقام بيان لعقابه الشديد، وإهلاكه لقوم نوح بالغرق، في سياق كله مبني على إظهار عظمة الله تعالى وقدرته البالغة في مؤاخذة الكافرين، ناسبه أن استعمال لفظ(الجبال)،ليتم به النسق كله في إبراز الصورة المخيفة والمرعبة التي تم بها إهلاك هؤلاء الكافرين، وقدرته تعالى الفائقة وعظمته البالغة التي لا تقهر ولا تغالب.

وهكذا يتبين لنا كيف أن القرآن كان يتأنق في اختيار الألفاظ، ويستخدم كلاً حيث يؤدي معناه في دقة فائقة تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان إنما خلقت له هذه اللفظة دون سواها، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفاً.

٢) تناسق اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعاني في بناء النص:

إن الكلمة لا تكتسب صفتها الذاتية، ولا تحمل شحنتها النفسية من شعور القائل المجرب إلا إذا كانت في سلك من النظم، وعشيرة مع الكلمات، وإلا إذا دلت على نفسها بأخواتها، فتتشابك الأفكار، وتتعانق الألفاظ، وينبني التركيب بالصور والتأملات، وهذا هو الأسلوب الذي فاق به القرآن وأعجز. والإتلاف لا يتم له الحسن إلا إذا اشتمل على صورتين من الملائمة.

الأولى: أن تكون الألفاظ يلائم بعضها مع بعض، بأن يقرن الغريب بمثله، والمتداول بشبهه؛ رعاية لحسن الجوار والمناسبة.

الثانية: أن تكون ألفاظ النص ملائمة للمعنى المراد، فإن كان فخما كانت الألفاظ فخمة، أو جزلا فجزلة، أو غريبا فغريبة، أو متداولا فمتداولة، أو متوسطا بين الغرابة والاستعمال فكذلك.

ومثاله قوله تعالى:﴿ تاللهِ تَفْتأُ تذكرُ يوسفَ حتى تكون حَرَضاً﴾ يوسف:٨٥، فإن إخوة يوسف يعجبون من أبيهم، ويستغربون أشد الاستغراب من استمراره بذكر يوسف، وعدم انقطاع أمله في عودته بعد كل ما حصل له، وما كان منهم معه، وبعد طول الزمان، فجاءت الألفاظ متناغمة مع المعنى، حيث بنى النص المعبر عن هذا الاستغراب منهم على ألفاظ غريبة، فأتى بأغرب ألفاظ القسم، وهي التاء، فإنها أقل استعمالا وأبعد عن أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو، وبأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار (تفتأ)، فإن (تزال) أقرب إلى الأفهام، وأكثر استعمالا، وبأغرب ألفاظ الهلاك، وهو (الحرض)، فجاء حسن النظم بتجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة، وتآخي أصوات الحروف والحركات والسكنات في تأثيرها، توخيا لحسن الجوار، وائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم.[1]

ومما حسن في القرآن دون غيره كلمة (ضيزى) من قوله تعالى:﴿ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ النجم: ٢١ – ٢٢.

فكلمة (ضيزى) هي أغرب كلمة في اللغة، ولم تستعمل في لسان العرب لثقلها وعدم حسنها عندهم إلا نادراً، بل قد لا تجد لها استعمالاً في شعرهم مطلقاً، ومع هذا جاءت في القرآن لها من الحسن ما يبعث بالإعجاب، وأن حسنها فيه يأتي بسبب وشيجتها مع أخواتها، وانسجامها في موضعها، وقد أظهر الرافعي سر حسنها بقوله: ولحسن هذه الكلمة في هذا الموضع عدة اعتبارات:

١–إن السورة التي وردت فيها هذه الكلمة قد جاءت ألفية الفواصل كلها، فجاءت الكلمة: (ضيزى) ذات نغم صوتي ملتئم مع فواصل الآي الأخرى، ولو وضع كلمة: (جائرة) موضعها وهي قسيمتها في الدلالة لجارت على الموضع، وفاتت

١– الإتقان:٣/٢٦٢.

المناسبة وحسن الجوار، فجيء بها – أي ضيزى – لذلك الالتئام والتناسق الصوتي الذي لا يخفى أثره.

٢–إنها جاءت معلقة على سلوك معيب وغريب، حيث جعلوا لله الإناث سبحانه ولهم الذكور، مع الإصرار على قتلهم البنات، فعبرت عن غرابة قسمتهم بغرابتها اللفظية.

٣–إن الآية الأولى: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ اشتملت على استفهام إنكاري، والآية الثانية:﴿تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ اشتملت خاتمتها على التهكم، فجاءت الجملة أولها إنكار وآخرها تهكم، وهما معنيان متناسبان، أولهما كالمقدمة لثانيهما، وهذه الكلمة الغريبة (ضيزى) أليق ما تكون دلالة على التهكم، لأنها وصفت حالة المتهكم في إنكاره بهذين المدّين الذين أشتملت عليهما، من إمالة الرأس واليد إلى الأسفل والأعلى.

٤–وإن تعجب فعجب نظم هذه الكلمة نفسها، وائتلافها مع ما قبلها، إذ هي مقطعان؛ أحدهما: مد ثقيل، والآخر: مد خفيف، وقد جاءت عقب غنتين في (إذن) و(قسمةٌ)، إحداهما: خفيفة حادة، والأخرى: ثقيلة متفشية، فكأنها بذلك ليست إلا مجاوبة صوتية لتقطيع موسيقي، وهذا معنى رابع للمعاني الثلاثة الأول.

٥–ثم إن هذه الكلمة الدالة على المعاني الأربعة المذكورة هي أربعة أحرف.[1]

فغرابة اللفظ في نفسه يعبر عن غرابة القسمة، وينسجم مع المعنى الذي يؤديه على أتم وجه وأكثره وقعاً في النفس.

ومن روائع ذلك قوله تعالى:﴿واشتعل الرأس شيبا﴾ مريم:٤، حيث يعيب عبد القاهر الجرجاني من نسب الشرف فيه إلى الاستعارة وحدها، فليست هذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة، ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما، يسند فيه الفعل إلى الشيء، وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه،

١–إعجاز القرآن: الرافعي: ٢٦٢ وفي ظلال القرآن: تفسير سورة النجم، وخصائص التعبير:١/ ٢٤٩.

ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده، مبيناً أن ذلك الإسناد، وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة.

وذلك أننا نعلم أن (اشتعل) للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ، والسبب في أن كان (اشتعل) إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى: الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استقر به وعم جملته فلم يبق من السواد شيء، أو لم يبق إلا ما لا يعتد به، وهذا ما لا يكون إذا قيل: اشتعل شيب الرأس أو الشيب في الرأس، بل لا يوجب اللفظ أكثر من ظهوره فيه على جملته.

ونظيره قوله تعالى:﴿وفجرنا الأرض عيونا﴾ القمر١٢، التفجير للعيون في المعنى، وأوقع على الأرض في اللفظ، كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس، وقد حصل بذلك من معنى الشمول هاهنا مثل الذي حصل هناك، وذلك أنه أفاد أن الأرض قد صارت عيوناً كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها، ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل: وفجرنا عيون الأرض، لم يفد ذلك، ولكان المفهوم عنه؛ أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الأرض، وانبجس من أماكن منها.

واعلم أن في الآية الأولى شيئا آخر من جنس النظم، وهو تعريف(الرأس) بالألف واللام، فأفاد معنى الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزية والحسن، ولو قيل: واشتعل رأسي، فصرح بالإضافة لذهب بعض الحسن[1].

ولما كان عبد القاهر صاحب هذا التحليل لهذه الآية قد جعل علم البيان مما يؤكد الإعجاز ويقويه لكن ليس هو أصل فيه، لذلك لم نلحظ إشارته الموضحة إلى الجانب الفني في صورة الاستعارة، مع ما يدل عليه لفظ (اشتعل) من الحركة والتموج التي تخيل

١- دلائل الإعجاز: ٨٢- ٨٣

للناظر فزع زكريا عليه السلام، وقلقه من وهن العظم، وشيوع الشيب، حيث لم ينجب الولد، فنادى ربه نداءً خفيا.[1]

كذلك ما يوحي إليه لفظ (اشتعل) من تناسب لوعة القلب ونار الفزع والحزن الخفي مع الاشتعال الظاهر في الرأس.

فالاستعارة وهكذا صور البيان الأخرى لون من ألوان التصوير داخل النص، لأن الكلمة التي تشتمل على المعنى المستعار ليس لها حياة وحدها، فإذا انتظمت في جملة أو عبارة انتشر ما حولها من شعاع.

واسمع إلى قوله تعالى:﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ، وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ هود:٤٤ فخذ لفظة منه واعتبرها وحدها دون نظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، فهل ترى أنها تؤدي ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟.

فمبدأ العظمة أن نوديت الأرض ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ(يا) دون (أي) نحو: يا أيتها الأرض، ثم إضافته الماء إلى الكاف، دون القول (ابلعي الماء)، ثم في اختيار:﴿ابلعي﴾،ثم اتبع نداء الأرض وأمرها بنداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم: ﴿وغيض الماء﴾ فجاء الفعل على صيغة (فُعِل) الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله:﴿وقضي الأمر﴾، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو:﴿استوت على الجودي﴾، ثم إضمار السفينة قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة (قيل) في الخاتمة بـ(قيل) في الفاتحة.[2] فعظمة الله التي وراء نداء الأرض وأمرها، وقدرته التي وراء بناء الفعل للمجهول، وتأكيدهما، كل هذا التقى في تعانق وتناسق رائع فتحقق به البناء والنظم المعجز.

---

[1]- بلاغة القرآن : ١٦٠.

[2]-دلائل الإعجاز ٤٨ .

إن هذا الإيجاز الذي حلل به الجرجاني نظم القرآن في هذه الآية، وبين ما فيها من روعة تعبير، وجلالة معان، أشار به إلى أسرار ودقائق بديعة كثيرة لمن أراد أن يفصلها، ولا تظنن أن الآية مقصورة على المذكور، فلعل المتروك أكثر من المسطور، ففيها من اللطائف ما لا يسع الحصر، فقد تعاضدت فنون البلاغة كلها في نظم هذه الآية، فمن جهة علم البيان: ترى أن الله تعالى لما أراد أن يبين معنى: أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغيض، وأن نقضي أمر نوح وهو إنجاز ما كنا وعدناه من إغراق قومه فقضي، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت، وأبقينا الظلمة غرقى، بنى الكلام على تشبيه المراد بالأمر الذي لا يتأتى منه العصيان، لكمال هيبته، وتصوير تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكون المقصود تصويرا لاقتداره العظيم، وأن السموات والأرض منقادة لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة لإرادته فيها تغييرا وتبديلا، كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته، وأحاطوا علما بوجوب الانقياد لأمره، والإذعان لحكمه، وتحتم عليهم بذل المجهود في تحصيل مراده.

ثم استعار لغور الماء في الأرض (البلع)، الذي هو جذب المطعوم، وهو الذهاب إلى مقر خفي، ثم أضاف الماء إلى الأرض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالأرض كاتصال الملك بالمالك، فعليه أن يتحمل مسؤولية الذهاب به، ثم اختار لاحتباس المطر (الإقلاع) الذي هو ترك الفاعل الفعل، للشبه بينهما في عدم التأني، ثم لم يصرح بالقائل لهما، ولا بفاعل من أغاض الماء، ولا بمن قضى الأمر، وسوى السفينة، وقال بعدا، سلوكا في كل ذلك مسلك الكناية، لأن هذه الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكون قاهر، وأن فاعلها واحد لا يشارك في فعله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره مثل ذلك. ثم ختم الكلام بالتعريض، تنبيها لسالكي

مسلكهم في تكذيب الرسل ظلما لأنفسهم، إظهارا لمكان السخط، وأن ذلك العذاب الشديد ما كان إلا لظلمهم.

ومن جهة علم المعاني، وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها، وجهة تقديم وتأخير فيما بين جملها، وتعريف وتنكير، وحذف وذكر، وغير ذلك، فقد اختار:(يا) دون أخواتها، لكونها أكثر استعمالا، ولدلالتها على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة والملكوت، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به. ولم يقل: (يا أرضي)، لزيادة التهاون، إذ الإضافة تستدعي القرب، ولم يقل: (يا أيتها الأرض) للاختصار، ولم يقل: (ابتلعي) لكونه أخصر، وللتجانس بينه وبين (اقلعي)، وقال: ﴿اقلعي﴾ ولم يقل: عن المطر، وكذا لم يقل: يا أرض ابلعي ماءك فبلعت، ويا سماء اقلعي فأقلعت، اختصارا، وقال:﴿وغيض الماء﴾ دون ماء الطوفان، ولم يقل: (وقضي أمر نوح وقومه)، اكتفاء بحرف العهد، كل هذه الاختصارات تفيد سرعة تحقق النتيجة، وأن امتثال المأمور لم يتأخر عن صدور الأمر، فكأنه لا يوجد فاصل زمني بينهما، كما أن فيه اختصار الزمن للإخبار عن المقصود والقضية المهمة، وهي أن الأمر قد انتهى. وهكذا تقديم النداء على الأمر (ابلعي واقلعي)، جريا على مقتضى الكلام فيمن كان مأمورا حقيقة من تقديم التنبيه، ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى قصدا لمعنى الترشيح. وقدم أمر الأرض على السماء لابتداء الطوفان منها، ثم أعقبه بـ﴿وغيض الماء﴾ لأنه نتيجة الأمر لهما، ثم ذكر ما هو المقصود من ذلك كله، وهو:﴿وقضي الأمر﴾ أي أنجز الموعود من إهلاك الكفرة، وإنجاء نوح ومن معه. وهكذا ترى هذه الآية من جهة الفصاحة المعنوية: نظم للمعاني لطيف، وتأدية لها ملخصة مبينة، لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد، ولا التواء يشيّك الطريق المرتاد.[1] ومن جهة الفصاحة اللفظية: فألفاظها سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العَذَبات، سلسة

١-الكشاف: ٢٠٢/٣-٢٠٣طبعة عبيكان ١٩٩٨وتفسير النسفي:١٨٩/٢ــ١٩١.

على الأسَلات، كل منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة، ومن ثَمَّ أطبق المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية.

٣) ظاهرة التكرار في القرآن:

من الظواهر التي تلفت النظر في القرآن ظاهرة التكرار، وهذه الظاهرة قد تكون أشد وضوحاً في السور المكية منها في السور المدنية، مع أن السور المدنية لا تخلو منها.

أسباب التكرار ووظائفه :

إن ورود التكرار في القرآن ليس اعتباطيا، وإنما له هدف مقصود، ووظيفة يؤديها في النص، ويمكن إرجاع أسباب التكرار إلى أمرين عامين:

أحدهما: ديني يتعلق بطبيعة القرآن نفسه، فالقرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، جاء ليربي هذه الأمة، ويرشد البشرية كافة إلى الدخول في هذا الدين، ومن يمارس التربية يعلم مدى حاجته إلى التذكير الدائم حتى يستقيم الأمر:﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ الذاريات: ٥٥، ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ ق: ٣٧.

فالغرض من التكرار هو تقرير المكرر وتوكيده، وإظهار العناية به، ليكون في السلوك أمثل، والالتزام به أبين. وقد نبه تعالى على السبب الذي لأجله كرر القصص والإنذار في القرآن بقوله: ﴿ وصرَّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون أو يُحْدِثُ لهم ذكرا﴾[1] ولذا يقول النسفي:«كل تكرير ورد في القرآن فالمطلوب منه تمكين المكرر في النفوس وتقريره». [2]

---

١ – طه:١١٣.

٢– تفسير النسفي: ١٠/١. نقله من كلام الزمخشري.

ثانيهما: فني أدبي، فللتكرار في القرآن وظيفة ظاهرة يؤديها في البناء الفني والأدبي للنص، سواء في زيادة معان ثانية، أو إتمام الصورة الفنية، أو لغيرها من الأسباب، وهي كثيرة، وكلها تصب في مجرى تأكيد المعنى وتوضيحه، وإضفاء الحركة والحياة عليه.

وأن هذين السببين للتكرار (المعنوي والفني) هما متلازمان في بنية النص القرآني، لأن محاولة تصور اللفظ منفصلاً عن المعنى غير ممكن، كما أن المعنى غير منفصل عن فن التعبير في الأسلوب، ولذا فإن الكلام عن الوظيفتين لا يمكن انفصاله عن بعض.

سمات التكرار في القرآن:

١-إن العبارات التي وردت بنصها أكثر من مرة هي قليلة، ومع ذلك فإنها تؤدي رسالة معنوية وفنية في النص الذي وردت فيه، مثاله:﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ في موضعين في التوبة: ٧٣، وفي التحريم: ٩، وقد تكررت لأمر مقصود، هو شحذ الهمة لمقاتلة الكفار والمنافقين، وذلك لاقتضاء السياق في السورتين لذلك.

وجاءت حكاية قول الكفار:﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ في أكثر من موضع . في سورة (النمل:٧١) وفي (يس:٤٨) وفي (الملك:٢٥) وفي (السجدة:٢٨) ووردت بصيغة:﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين﴾ السجدة: ٢٨، كذلك جاء حكاية طلبهم الآية في أكثر من موضع:﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ الرعد:٢٧ و﴿وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه﴾ الأنعام:٣٧، ونحوه.

والمقصود من هذا التكرار الإشعار بأنهم يكثرون من ترديد هذه الأقوال، ويلحون في التحدي وفي طلب الآية.

٢- إننا حين نتلو القرآن الكريم فإننا لا نجد تكرارا حقيقيا بالمعنى المفهوم من اللفظ، إنما نجد ظاهرة أخرى، هي تستحق منا النظر من حيث الجمال الفني في التعبير، ومن حيث هي لون من ألوان التأثير الوجداني الفريد، هي ظاهرة (التنويع) في العرض والتصوير. ولذا فإن الأولى تسمية هذه الظاهرة بالتنويع لا بالتكرير[١].

٣-إن ما يسمى تكرارا في القرآن هو ليس (تماثلاً) بين النصوص، وإنما هو (تشابه)، إذا تمعنت فيه وجدت أنه شبيه بثمار الجنة:﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأُتُوا به متشابهاً﴾ البقرة: ٢٥. فظاهره يشبه بعضه بعضا، حتى إذا تناوله وجده مختلفا مذاقا، فهو يشبهه لكنه لا يماثله، مما يجعلهم يعيشون في مذاقات متجددة على الدوام يفاجئون بها، وهكذا فن التعبير في القرآن.

٤-إن التنوع في العبارات المتشابهة يأتي متسقاً مع التنوع في الخلق، والتلون في الموضوع، مثاله التعبير عن اختلاف الألوان بعبارات مختلفة في الصيغة انسجاماً مع اختلاف الألوان وإشارةً إليه. وذلك كقوله :

﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها﴾ فاطر: ٢٧ .

﴿فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها﴾ فاطر: ٢٧ .

﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾ فاطر: ٢٨ .

فيكرر العبارة اللغوية الواحدة في موضع بثلاث صيغ، منوعاً لها مع كل نوع من أنواع الخلق، ويلاحظ أنه حينما يكون الحديث عن إنبات الزرع وإخراج الثمرات يأتي بكلمة (مختلفاً) منصوبة، ومثاله أيضاً: ﴿ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾ الزمر:٢١، ﴿والنخل والزرع مختلفاً أكله﴾ الأنعام:١٤١، ﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه﴾ النحل:١٣.

١- دراسات قرآنية : محمد قطب: ٢٥٤ .

أرأيت الإبداع في التعبير، إنه بهذا التكرار كان معجزاً، فتنوع الصيغة يلفت الحس البشري إلى ظاهرة التنوع في الخلق فيكرر اللفظ وينوعه مع تكرر الخلق وتنوعه.

٥-أكثر الموضوعات التي ورد فيها التكرار هي موضوعات العقيدة،وما كان مسوقاً بالأصل لغرض عقيدي، مثل قصة آدم وإبليس وقصص الأنبياء، وأخلاقيات الإيمان.

٦- ثم إن كل سورة من السور القرآنية لها شخصيتها المميزة وجوها الخاص، وإن كل نص من نصوص القرآن وإن بدا متشابهاً فإنه يأخذ جو السورة التي يرد فيها، ومن ثم تكون له ملامحه الخاصة في كل مرة، أحياناً بتقدم كلمة أو تأخرها، سواءً بنفسها، أو بعد تغيير في ملامحها أو بزيادة كلمة أو حذفها أو بنحو ذلك، فلا يتكرر النص بنفسه، ولا تجئ الملامح مرتين متماثلة، إنما يحدث في كل مرة نوع من التغيير مثاله:﴿وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ النحل:١٤، ﴿وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ فاطر:١٢، وقوله: ﴿ولقد صرَّفْنا في هذا القرآن للناس من كل مثل﴾ الكهف:٥٤، وقوله: ﴿ولقد صرَّفْنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ الإسراء: ٨٩. فإذ افتتحت سورة الكهف بالحديث عن القرآن قدم فيها ذكر القرآن، ولما كانت سورة الإسراء قد افتتحت بالحديث عن الناس قدم ذكرهم في آية الإسراء.

وجوه التكرار في القرآن:

أ)تكرار الأداة:

ومن أمثلته: ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ النحل:١١٠ .

وقوله تعالى:﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ النحل: ١١٩.

فيلاحظ في الآيتين تكرار الأداة (إنّ) مع اسمها في كل آيـــة مـــرتين، والظـــاهر الاكتفاء بإيراد (إن) في المرة الأولى. والسبب في هذه الإعادة هو: طول الفصل بين الأداة وخبرها، مما يشعر بتنافيه مع الغرض الذي جاءت مـــن أجلـــه (إن)، وهـــو التوكيد. لهذا اقتضت البلاغة إعادتها لتلحظ النسبة بين الركنين على ما هو حقها من التوكيد، تطرية له وتجديدا لعهده. ثم هناك سبب آخر، هو فني، وهو: الفارق فيمـــا بين البنائين؛ النظم الذي عليه النص القرآني، وفيما إذا أسقطت (إنّ) عنه، فبينـــهما فرق ظاهر من حيث التناسق وقوة التعبير في الأول، وضعف وركاكة في الثانية[1].

كذلك فإن هذا التكرار الذي اقتضاه طول الفصل هو متناسق مع طول الفاصـــل الزمني الذي حصل بين العملين؛ فتنة أو سوء عمل في زمن، ثم توبة وعودة في زمـــن آخر، وفي مجيء (ثم) في الآيتين التي تفيد تراخياً يشعر بذلك، فـــإن العمـــل الـــذي يقتضي المؤاخذة كان في زمن، ثم كان العمل الذي ترتبت عليه المغفرة والرحمة. ممـــا ناسبه تكرار الأداة تبعاً للاختلاف والتنوع في الزمن والعمل.

ب)تكرار الكلمة :

مثاله: ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ النمل:٥، فقد تكرر الضمير (هم) مرتين، وهذا التكرار فائدته تقوية المعنى وتأكيده.

ومثله أيضا قوله تعالى:﴿أولئك الذين كفروا بربهم، وأولئك الأغلال في أعنـــاقهم، وألئك صحاب النار هم فيها خالدون﴾ الرعد: ٥. فقد تكررت (أولئـــك) ثـــلاث مرات، تبين الأولى كفرهم بربهم، والثانية تبين أنهم لا طريـــق لهـــم إلى الهـــدى لأن الأغلال في أعناقهم، والثالثة تبين مصيرهم يوم القيامة.

١- المثل السائر: ابن الأثير:٧/٣، الإتقان:٢٠٠/٣وخصائص التعبير القرآني :٣٢٣/١.

فهي مكررة بتعدد المعاني واختلافها، مع أنها تكسب النص جمالاً وحسناً لا تجده لو أسقطت إحداها، كما أنها تقوى المعنى وتؤكد النسبة في المواضع الثلاثة للتسجيل عليهم.

ومثله قوله تعالى في وصف المتقين:﴿أولئك على هدى من ربهم، وألئك هم المفلحون﴾ البقرة: ٥. ففي تكرار اسم الإشارة (أولئك) تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح.[١]

ومما يوضح لنا أن التكرار للكلمة في القرآن هو مقصود قصداً معنوياً وفنيا، أننا نجده يكرر كلمة في موضع ولا يكررها في موضع آخر قريب منه في الظاهر، ومن هذا قوله تعالى في قصة إبراهيم وعلى لسانه عليه السلام:﴿الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يَشفينِ، والذي يميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾الشعراء: ٧٨-٨٢ .

فنجد أنه سبحانه كرر الضمير (هو) في مواضع من النص ولم يأت به في مواضع، فلم يقل: وهو الذي يميتني وهو يحيين. كما لم يقل: هو الذي خلقني، مع أنه قال:﴿فهو يهدين﴾ و﴿هو يطعمني ويسقين﴾.و﴿فهو يشفين﴾.

ونكتته: هي أن الضمير (هو) يفيد توكيدا، والتوكيد للجملة يؤتى به عند الحاجة إليه، مثل وجود شك أو إنكار من المخاطب، أو ما يُنَزّل مترلتهما، وعلى هذا الأساس جاءت بنية هذه الجمل في النص القرآني، فحينما لا نجد من يدعي فعل مثل هذا من البشر، ولا ينكر أحد أنه فعل ممحض لله وحده، لا نكون بحاجة إلى تأكيد، (فالخلق والإماتة والإحياء) لا أحد يدعيها، فلا حاجة إلى تأكيد أن المانح والفاعل لها هو الله وحده.

وأما إذا كان الفعل مما قد تجد من يدعيه لنفسه تكبراً وبطراً على الحق من البشر، فإنه يأتي به مؤكداً بالضمير كما في قوله: (هو يهدين، هو يطعمني، هو يشفين)، فأتى

١- تفسير النسفي ١٥/١

بالضمير وكرره في هذه المواضع، لأن هناك من يدعي أنه هو الذي يهدي النـــاس، ومنهم من يدعي منح الرزق وإعطائه، ومنهم من يدعي الإشفاء للآخـــرين، وأن مـــن الناس من يظن بأن من هداه هو فلان من الناس، ومنهم من يظن بأن الرزق بيد بعض البشر، وأن الذي يشفي ويعافي هو الطبيب، ويغفلون أن هذه أســـباب، وأن الفاعـــل الحقيقي هو الله سبحانه، ولو شاء لما تمكن هؤلاء من إيصال ما جعلهم سببا في إيصاله.

لهذا نجد القرآن كرر الضمير مع كل واحد من هذه الأمور تأكيداً على أن الفاعل هو الله، وقطعاً لكل ظنة تصور أن له شريكاً في فعل ذلك. ولم يأت بالضـــمير مـــع الإحياء والإماتة والخلق لعدم الحاجة إلى التوكيد هنا بسبب عدم وجود المقتضى.[1]

ومنه قوله تعالى:﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهـــم عذاب عظيم﴾ البقرة٧. فكرر حرف الجر (على) مع القلوب والأسماع، ليدل علـــى شدة الختم في الموضعين.[2] وكرره مع (الأبصار) ليفيد شدة الغشاوة عليها .

ج)تكرار الفاصلة :

وقد ترد الفواصل مكررة في القرآن الكريم، وهذا التكرار قد يرد مرتين، وقد يرد ثلاث مرات، وقد يرد أكثر من ذلك. وكله يعود إلى تعدد المتعلق، بأن يكون المكرّر ثانيا متعلقا بغير ما تعلق به الأول، وهذا القسم يسمى بالترديد.

وهذا ما نجده بارزاً في سورة القمر وسورة الرحمن وســـورة المرســـلات، فنجـــد الفاصلة:﴿فكيف كان عذابي ونُذُر﴾ تكررت في سورة القمر أربع مرات، عقب قصة قوم نوح وانتهائها بنهايتهم المرعبة وبأسلوبها العجيب، ولدى افتتاح قصـــة عـــاد، بقوله: ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر﴾ القمر: ١٨. وعقـــب ذكـــر قصـــة

[1] – معجزة القرآن : شعراوي: وحوار مع صديقي الملحد:مصطفى محمود: ٧٠.
[2] – تفسير النسفي: ١٧/١.

إهلاكهم بالريح الصرصر بعد عتوهم وتركهم: ﴿كأنّهم أعجازُ نخلٍ مُنْقَعِر، فكيف كان عذابي ونذر ﴾ القمر:٢٠، وإعادتها في قصتهم إخراج لها مخرج الاهتمام، وإشارة إلى أن التكذيب عاقبته العذاب والهلاك، فابتدأ القصة بهذا التنبيه، ثم كرره كالتقرير لما أخبر عنه. ثم جاءت هذه الفاصلة رابعة مع قصة ثمود (آية٣٠) .

وهذا التكرار لمثل هذه الفاصلة في هذه السورة يناسبها تماما، فهي من السور التي بنيت على الإنذار والتهديد لمن يحارب الله ورسوله، والتوعد لهم بالعذاب الشديد، فجاءت سريعة الإيقاع، قصيرة الفواصل، قوية الألفاظ، وجاءت بقصص أولئك الأقوام المكذبة وما حصل لهم من الإهلاك بصور عجيبة، وكيفيات مرعبة وغريبة، وهي مع أنها صور إهلاك متنوعة، إلا أنها كلها تنتهي إلى نهاية واحدة، هي هلاكهم هلاكاً مفزعاً وهم غافلون، يبعث خبره على التعجب، ووصفه على شدة الاستغراب، بحيث يترك الخيال سارحا في استكناه كنهه، وتصور شدة وقعه. فتكرار الفاصلة نفسها مع هذا القصص إشارة إلى أن خاتمة المكذبين المتكبرين واحدة، مع مناسبة هذه الفاصلة للموضوعات التي جاءت تعقيباً عليها، وتناسقها مع إيقاع الفواصل في السورة كلها .

وبمثله ما ورد فيها من تكرار أيضا لفاصلة أخرى هي:﴿ولقد يَسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مدّكِر﴾ القمر: ١٧ ،٢٢،٣٢ ،٤٠، فهي دعوة مناسبة لجو السورة، تدعو للتأمل فيما يسوقه الله من قصص، والاعتبار بحال أولئك الأقوام. يقول الزمخشري:« كُرّر ليجددوا عند سماع كل نبأ منها اتعاضا وتنبيها، وإن كلا من تلك الأنباء مستحقٌ لاعتبارٍ يختص به، وأن ينبهوا كيلا يغلبهم السرور والغفلة».[1]

وأما التكرار في سورة الرحمن فقد تكررت الفاصلة:﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ، حيث تكررت (٣١) مرة. وقد تميز التكرار في هذه السورة بأمور من أبرزها:

١- الإتقان:٢٠٢/٣.

١- إن التكرار فيها هو أكثر صور التكرار الوارد في القرآن الكريم .

٢- إن مما حسن التكرار في هذه السورة، أنه قد مهد له تمهيدا رائعا، حيث جاء بعد اثنتي عشرة آية متحدة الفواصل، وقد تكررت في هذا التمهيد كلمة: (الميزان) ثلاث مرات متتابعة، ودونما نبو أو ملل:﴿والسماءَ رفعَها ووضعَ الميزان، ألا تَطْغَوْا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخْسِرُوا الميزان﴾ الرحمن: ٧-٩، مما أشاع في جو السورة لحنا موسيقيا متناسقا، هو بمثابة مقدمة طبيعية لتناغم يعقبه، متآلف في إيقاعاته ومتناسق مع ما قبله، مما يجعل النفس تألفه وتأنس به، دون أن تفاجأ به. [1]

٣-إن الطابع الغالب على هذه السورة هو طابع تعداد النعم على الخلق، فجاء عقب ذكر كل نعمة أنعمها على الخلق بعبارة:﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ حثا لهم على شكر نعمه، وتذكرها وعدم نسيانها. وكل واحدة تتعلق بما قبلها، لا أن الجميع عائد إلى شيء واحد. وإن كان بعضها ليس بنعمة في الظاهر فذكر النقمة للتحذير نعمة.

وأما التكرار في المرسلات، فقد تكررت فيها جملة:﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ عشر مرات، وهذا التكرار مع اتصافه بمثل ما جاء عليه القول في سورتي القمر والرحمن، فإن له هنا هدفا عاما اقتضاه، وأسلوبا خاصا يميزه. وقد ابتدأت السورة تمهد لهذا التكرار بذكر مظاهر كونية، هي الرياح التي يصرفها سبحانه كيفما يشاء، يجعلها نقمة مرة، ويجعلها رحمة تأتي بالمطر مرة أخرى، إنذارا و تبشيرا، وما يزامن ذلك من إرسال الرسل بالذكر:﴿عذراً أو نذراً﴾، ثم بالانتقال إلى الإخبار عن صدق الوعد بقوله:﴿إنما توعدون لواقع﴾ المرسلات:٧، تبعه وصف العالم عند وقوع ذلك اليوم الموعود، الذي هو يوم الفصل ﴿وما أدراك ما يوم الفصل، ويل يومئذ للمكذبين﴾ المرسلات:١٤-١٥، ثم تأتي هذه الفاصلة تتكرر بعد كل مشهد من مشاهد يوم القيامة، وصور الحشر وأحداثه المتنوعة، وكأنها هنا تشير إلى تنوع ما يناله المكذبون

١- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٣٢٩/١.

من العذاب وصنوف المهانة والذل، بتعدد وتنوع المواقف والمشاهد يوم الفصل يوم القيامة، وتهدد وتتوعد من كذب بكل قصة ومشهد أتبعه بهذا القول، وكأنه يقول عقب كل قصة: ويل يومئذ للمكذب بهذه القصة والمشهد.

ومثل ذلك ما جاء في سورة الشعراء: ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾ الشعراء:٨ فقد كررت ثماني مرات، مرة عقب كل قصة، تشير في كل واحدة بذلك إلى قصة النبي المذكور قبلها، وما اشتملت عليه من العبر والآيات، وبقوله: ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ إلى قومه خاصة، لأن كل نبي منهم كان قد آمن به قليل، ولذا جاءت الفاصلة بذكر وصفي العزيز الرحيم، للإشارة إلى الفريقين: الكافرين والمؤمنين.

د) التكرار في القصة :

والتكرار في القصة هو أهم ما يميز التكرار في القرآن الكريم فهو ظاهرة فنية ودعامة تربوية، لها أهداف عدة جاء لإبرازها، إذ ليس المراد من التكرار والتنويع مجرد العرض والمعرفة، أو التشويق والتسلية، وإن تحققت. يقول الزركشي:«إن عادة العرب في خطاباتها إذا اهتمت بشيء أرادت تحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء إليه، كررته توكيدا، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه، أو الاجتهاد في الدعاء بحيث تقصد الدعاء، والقرآن نزل بلسانهم، فكانت مخاطباته فيما بين بعضهم وبعض. وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة»[١]، فالكلام إذا تكرر تقرر في النفس وثبت في الصدر.[٢]

١- البرهان : ٩/٣ .

٢- الكشاف: ٣ / ٣٨٥ومن أسباب تكرار القصة في القرآن الكريم: يوسف حامد الفكي: ٢٠وما بعدها.

ولتكرار القصص القرآني سمات بالغة الأهمية، منها: أن العبارات كثيرا ما تأتي متشابهة بل متماثلة في مخاطبة الأنبياء لأقوامهم، وكذا في جواب أقوامهم لهم، وهذا لم يرد اعتباطا، وإنما هو مقصود قصدا.

فمثلا في قصص (نوح وهود وصالح وشعيب) عليهم السلام مع أقوامهم المكذبين، فإنها ترد ذات القصة لكل من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام في سورة (الأعراف وهود والشعراء) بما يوهم لأول وهلة أن هناك تكراراً في المفردات وفي المجموع، أو هي تكرار لقصة جماعة واحدة مع نبيها، وليست هي قصص متعددة ومختلفة.

وكان عرضها يتم بطريقتين: تنويع في عرض القصة الواحدة من سورة إلى سورة أخرى، مع اختلاف في التلوين تبعا لاختلاف جو السورة.

وتنويع في عرض المجموعة المتشابهة من القصص في كل سورة على حدها، مع إبراز التشابه في موضوعاتها جميعاً لدى عرضها في السورة الواحدة. وهذا واضح لمن طالعه.

ففي سورة الأعراف جاء: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرُهُ ﴾ آية:٥٩ .

﴿ قال الملأ من قومه: إنا لنراك في ظلال مبين﴾ آية: ٦٠ .

﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرُه﴾آية:٦٥.

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه: إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ آية:٦٦.

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ آية:٧٣.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لِلَّذينَ استُضْعِفوا، لِمَنْ آمن منهم: أتعلمون أنَّ صالحاً مرسلٌ من ربه﴾ آية: ٧٥ .

﴿وإلى مَدْين أخاهم شعيبا قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ آية:٨٥ .

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتَعُودُنَّ في ملتنا﴾ آية:٨٨ .

فتتوحد الدعوة في كل مرة، وتتشابه المواقف في رد الملأ، ويختلف الأسلوب فيما بعد في رد الملأ على كل رسول .

وهكذا في التعقيب على كل قصة في السورة:

فمع نوح:﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ ،٦٤.

ومع هود:﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منّا وقَطَعْنا دابر الذين كذّبوا بآياتنا﴾ ،٧٢.

ومع قوم صالح: ﴿ فأخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين. فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالةَ ربي ونصحت لكم ﴾ ، ٧٨ – ٧٩ .

ومع شعيب: ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين – إلى قوله – فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾ ،٩١–٩٣.

فتتوحد نتيجة كل من الأقوام المكذبين، بتوحد تدميرهم، وتتوحد نجاة المؤمنين ويتنوع الأسلوب.

ومثله تجده في سورتي هود والشعراء، مع تنوع آخر لطيف بين السور الثلاث.

وهذا التنويع والتشابه في قصص الأنبياء يرمي إلى إبراز حقائق معينة، من أهمها: [1]

١– إن كل الرسل قد جاءوا بكلمة واحدة من عند الله وبقضية واحدة على تتابع الأجيال يؤدونها: هي اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

٢–إن كل الأقوام قد كان منها تكذيب لرسلها، فلم تستجب لما بلغها به الرسل من عند الله، كما كان منها أن آمن بهم بعض أقوامهم، فانقسم الناس بإزاء الدعوات صنفين، مؤمنين مصدقين، وكافرين مكذبين .

٣–إن الله نجى رسله ومن آمن معهم في النهاية، وأهلك المكذبين ودمر عليهم.

٤–إن الملأ–وهم السادة–هم المكذبون دائما، وهم الذين يتصدون لدعوة الرسل.

١– دراسات قرآنية : ٢٥٧ ومن أسباب تكرار القصة في القرآن:٢٦.

٥-إننا نجد أن العبارة تجيء موحدة على لسان كل رسول، في الشريط المتتابع للرسل، كل رسول يقول نفس الكلمة ويمضي، ويأتي مَنْ بعده بنفس الكلمة أيضا بلا تغيير، وكأنما هي رسالة واحدة مكررة، وإن اختلف الزمان والمكان، واختلف الأشخاص واللغات. وهذا ما تجده بارزا في أسلوب القصص القرآني.

٦-أحيانا يخبر عن قوم معينين أنهم كذبوا الرسل، مع أنهم لم يرسل لهم إلا رسول واحد، وأحيانا يقال عن أقوام متعددين أنهم عصوا رسول ربهم. ليوحي التعبير بأن تكذيب الرسول بمثابة تكذيب جميع الرسل. فهي جاهلية واحدة مكررة وإن اختلفت اللغات والأشخاص، وتباعد الزمان واختلف المكان .

وهكذا حينما نقرأ قصة كل رسول في السور المختلفة، نجدها تتنوع بحسب أجواء السورة، وهو يؤكد لنا أن إيراد هذا اللون من القصص بأسلوب التكرار والتنوع إنما هو مقصود لأداء وظائف معنوية مهمة مع الوظيفة الفنية البديعة، ولعل أهم هذه الفوائد والمقاصد هي:

١-إن في إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة، من زيادة شيء في موضع لم يذكر في الذي قبله، أو إبدال كلمة بأخرى، أو تقديم وتأخير، ما لا يخفى من الفصاحة.

٢- إن في هذا التكرار إظهار خاصة القرآن، حيث لم يحصل مع تكرار ذلك فيه هُجْنة في اللفظ، ولا ملل عند سماعه، فباين ذلك كلام المخلقين.

٣- لقد أفاد إخراج المعنى الواحد في صور متباينة في النظم جذب النفوس إلى سماعها، لما جبلت عليه من حب التنقل بين الأشياء المتجددة واستلذاذها بها.

٤-إنه تعالى أنزل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثله، بأي نظم جاءوا، ثم أوضح الأمر في عجزهم؛ بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاء به وبأي عبارة عبر بها.

٥- إنه تعالى تحداهم بالإتيان بمثل سورة منه، ولو اكتفى بذكر القصة في موضع واحد لقال قائل منهم: إيتونا أنتم بسورة من مثله، فأنزل الله سبحانه القصص مكررا في السور بأساليب متعددة، قطعا لحجتهم من كل وجه.[١]

٦- تكرار القصص فيه تكرار العظة والعبرة، من باب تذكرها لمن نسيها، وترسيخ مرماها في ذهن السامع والقارئ.

٧- إظهار جوانب أخرى من العبر والحكم والعظات تناسب المقام الذي وردت فيه، إذ أن كل قصة تكرر ذكرها قد جاءت متناسقة مع السياق الذي وردت فيه، ولها وظيفة جديدة تؤديها في مقامها الجديد.

وتكرار القصص هو الغالب، لكنه قد يقص بعض القصص في موضع واحد دون أن يكرره، كقصة يوسف، وسبب عدم تكرارها -والله أعلم- أن هذه القصة جاءت عقب سؤال الصحابة للنبيﷺ أن يقص عليهم كما رواه الحاكم في مستدركه، فنزلت مبسوطة تامة، ليحصل لهم مقصود القصص، من استيعاب القصة، وترويح النفس بها، والإحاطة بطرفيها. كما أنها لم تكن بصدد إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم، والحاجة داعية لتكرار مثل تلك تهديدا وإنذارا لكفار قريش، بأن يحل بهم مثل ما حلّ بمن سبقوهم من المكذبين. ثم إن فيها ذكر تشبيب النسوة به، وافتتانهن بيوسف، فناسب عدم تكرارها لما فيها من الإغضاء والستر، وتعليم الأمة بأن لا يحرصوا على نقل وتكرار حكاية مثل هذا إلا بقدر الحاجة، وللعبرة والاتعاظ.[٢]

بعد هذا نؤكد أن التنويع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن، وأن من إعجاز القرآن أن يعرض الموضوعات بهذا القدر المعجز في التنويع للتذكير والتربية والتوجيه، بحيث لا تتكرر صورتان متماثلتان أبداً في القرآن على كثرة المواضع التي

١ - الإتقان:٣/٢٠٤-٢٠٥.

٢ - الإتقان:٣/٢٠٥-٢٠٦.

يرد فيها كل موضوع، مع ما في ذلك من الحكمة بالنسبة لكتاب يقرأ على الدوام، ويتلى للتقرب به، وأن التنويع ذاته لجمال، فوق أنه يذهب عن النفس الملال.

٤- التناسب المعنوي واللفظي:

إن القرآن بلغ من ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره مبلغا لا يدانيه فيه أي كلام آخر، مع تنوع مقاصده، وتعدد موضوعاته، وتلوينه في الموضوع الواحد. وآية ذلك أنك تجده إذا تأملته جسدا واحدا تربط الأعصاب والأغشية والجلود بين أجزائه. وتلمح روحا سارية فيه كله، تبث فيه الحياة والحسن . فهو وحدة متماسكة، على حين أنه كثرة متنوعة، ذلك أن كل كلمة فيه متآخية مع أختها لتنتظم في جملة تستدعي ما بعدها بعد أن تشابكت مع ما قبلها، فكأنه من أوله إلى آخره سبيكة واحدة، وسلسلة متصلة محكمة السرد، مع أنها مؤلفة من حلقات متنوعة، تؤلف بينها وتوحدها أنواع من الروابط وأسباب من التناسب. فتأتي تبعا لذلك في تناسق نفسي، وتناسق معنوي، وتناسق في الجرس والشكل. ومثال لهذا نكتفي به من سورة الفاتحة.

يقول الزمخشري: إن العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر، ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله:﴿الحمد لله﴾ الدال على اختصاصه بالحمد، وأنه حقيق به، وجد من نفسه لا محالة محركاً للإقبال عليه، فإذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله:﴿رب العالمين﴾ الدال على أنه مالك للعالمين، لا يخرج منهم شئ عن ملكوته وربوبيته، قوي ذلك المحرك، ثم إذا انتقل إلى قوله:﴿الرحمن الرحيم﴾ الدال على أنه منعم بأنواع النعم، جلائلها ودقائقها، تضاعفت قوة ذلك المحرك. ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام وهي قوله:﴿مالك يوم الدين﴾ الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء، تناهت قوته، وأوجب الإقبال عليه، وخطابه بتخصيصه بغاية

الخضوع والاستعانة في المهمات:﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.[1] فهذا نوع من التناسق والتآلف النفسي بين الأحاسيس المتتابعة المنبعثة من تتابع الآيات.

ثم انظر في ترابط الآيات فيها من الناحية المعنوية، وحسن التخلص من معنى إلى معنى، ومن مقصد إلى مقصد في تناسق جميل.

لقد افتتحت: (باسم الله) كما يتوج القاضي كل حكم من أحكامه باسم جلالة الملك، لإعلان الجهة التي يستمد منها نفوذه في صدور أحكامه. ثم انتقل الكلام فيها سريعا إلى الاستدلال على أن الاستعانة إنما هي به تعالى وحده، وذلك بإضافة الاسم إلى لفظ الجلالة الذي هو: اسم الذات الجامع لصفات الكمال، وبوصف لفظ الجلالة بأنه:﴿الرحمن الرحيم﴾.

ثم انتقل الكلام إلى إعلان أنه تعالى مستحق للمحامد كلها، ما دام أنه المستعان وحده. ثم انتقل الكلام إلى تدعيم هذا الاستحقاق بأدلة ثلاث. جرت على اسم الجلالة مجرى الأوصاف في مقام حمده: ﴿الحمد لله رب العالمين،الرحمن الرحيم،مالك يوم الدين ﴾.

ثم انتقل الكلام إلى إعلان وحدانيته، في ألوهيته وربوبيته:﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ما دام أنه هو المعين وحده، ومستحق المحامد كلها وحده. ثم انتقل الكلام في براعة إلى بيان المطمع الأعلى للإنسان، وهو الهداية إلى الصراط المستقيم، ولا سبيل إلا عن طريق الله وحده بقرينة ما سبق من أدلة التوحيد والتمجيد قبله، فجاء:﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.

ثم انتقل الكلام بأسلوب لطيف مسترسل إلى تقسيم الخلق بالنسبة إلى هذه الهداية ثلاثة أقسام، تنبيها وإغراء على المقصود، وتحذيرا وتنفيرا من الوقع في نقيض هذا المقصود: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وإذا الناس

[1]-الكشاف:١/ ٥٢ــ ٥٧ وينظر التصوير الفني : ٢٦ــ ٢٧.

أمام عينيك بين منعم عليه بمعرفة الحق واتباعه، ومغضوب عليه بمخالفة الحق مع العلم به، وضال رضي العيش بمتاهة الجهالة والحيرة، ولا يكلف نفسه عناء البحث عن الحق.

ثم تنظر في سورة البقرة فإذا هي وما بعدها ترتبط بالفاتحة ارتباط المفصل بالمجمل، فالهداية إلى الصراط، هي صراط من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟ حيث جاءت سورة البقرة وما وليها من السور تشرح هذه الهداية وسبلها.[1] وأن العجب بهذه الوحدة العضوية والموضوعية في القرآن يكون أكبر، حينما تعلم بأن القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة مفرق الآيات والسور في تنزيله، تبعاً لتفرق الحوادث وتنوع الأسباب التي نزل عقبها، ومع ذلك جاء في هذا النسيج المدهش، والائتلاف المتماسك، والاتساق المتجاذب، الذي لا يدانيه ما يضعه الناس في مصنفات لهم في زمن واحد ومقصد واحد. وهكذا ما نجده في كل سورة من سور القرآن الكريم من وحدة داخلية، وتناسق وترابط متين التركيب، ثم نجد الارتباط الوثيق يمتد بين سور القرآن كله، في انسجام بنائي بديع، وإذا شئت أن تطلع عليه فادنوا منه متدبرا، فسيعطيك صورة مذهلة عن مدى الحبكة القوية الجميلة التي تظهر لك ذلك اللون من الإعجاز البنائي المطرب والباهر.[2] مصداقاً لقوله سبحانه:﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾النساء . ٨٢.

١- مناهل العرفان : ٢: ٣٦٦ .

٢- إذا شئت الاطلاع على نماذج من الوحدة البنيوية فعليك بمراجعة: النبأ العظيم: د.محمد عبد الله دراز، والرسول ﷺ: سعيد حوى، وكذا تفسيره: الأساس. وفي ظلال القرآن: سيد قطب. ولك أن تقف على أوجه التناسب لدى المتقدمين مثل: تفسير الرازي، ونظم الدرر في تناسب الآي والسور: برهان الدين البقاعي، وتناسق الدرر في تناسب السور: السيوطي، والوحدة الموضوعية في القرآن: د.محمد محمود حجازي وإمعان النظر في نظام الآي والسور: الشيخ محمد عناية الله محمد هداية الله..